أولاد القابلات

خالد ناجي ناصر

منشورات الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق

أولاد القابلات

مجموعة قصصية

خالد ناجي ناصر

إصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
الطبعة الاولى 2018

أولاد القابلات

خالد ناجي ناصر

رقم الايداع:

الطبعة الاولى 2018
اصدار الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق – بغداد
جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة للاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق، حسب قوانين الملكية الفكرية لعام 1988، ولا يجوز نسخ او طبع او اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من من هذا الكتاب إلا بإذن خطي.

First Edition 2018
Published by the Union of Iraqi Writers – Baghdad - Iraq
Revised copyright © The Union of Iraqi Writers the right of the Authors of this work has been asserted in accordance with the copyright, Design and Patents Act 1988.

طباعة : دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والتوزيع
Printing : Dar Al-Rowad for Publishing and Distribution

لوحة الغلاف : الفنان سعدي الرحال

□ القصص..

□

□

1- الموتى يحلمون أيضاً
2- جزء من حياة إمرأة عادية
3- إله رخام ،إله رماد
4- الآَباء العنيدون
5- المسيح يدخن كثيرا
6- هكذا ستأكلنا الذئبة
7- أصفادي من ذهب
8- أمنيات بلا أنياب
9- سأحكي وتنصتين
10- حادثة مكررة قرب معلم المدينة الأكبر
11- حكاية لايمكن الاخبار عنها بسهولة

الموتى يحلمون أيضا

□
□
□
□
□
□

توقفت الحافلة التي تقلنا فجأة، يقولون أن لحظة ما حتمية الوقوع سيتوقف فيها كل شيء عن العمل، تفحّص السائق أجزاء حافلته فلم يتوصل إلى سبب العطل وبالنظر إلى أنها تبدو جديدة فقد راودتني فكرة اللحظة الحتمية تلك، لكني بعد لحظات تراجعت ساخراً من نفسي لأني لمحت حافلة أخرى من بعيد تطوي الطريق السريع الخالي بعزم لا يلين، أطلق سائقها صفارة قويّة عند اقترابه وأبطأ من سيره قليلاً، فهمت أنه يعرض المساعدة، لكن سائقنا أجابه بحركة من يده؛ أن المشكلة تحت السيطرة، فعاد إلى سرعته الحثيثة الأولى مطلقاً صوتاً مختلفاً رجّحت أنه تعبير عن تمني الحظ لنا.

لا أستطيع تذكّر وجهتنا حين سلكنا ذلك الطريق، فربما نسيت بفعل ضغط ما حدث أو لأنني أشعر بعدم أهمية ذلك طالما لم نصل أبداً، وربما لم يكن لنا اتجاه نعرفه ونحن نعتلي ظهر تلك الحافلة ذات اللون الأخضر الداكن. أيقنّا أن السائق غير قادر على إصلاح العطل أو حتى معرفته وتأكيداً فإنه ترك صندوق عدّته مفتوحاً وأخذ يتلفت

في اتجاهات متباينة بحثاً عن منقذ نادماً لأنه بالغ في المكابرة حين رفض مساعدة زميله الذي مرّ قبل ساعتين أو أكثر.

تركنا مقاعدنا وترجلنا، الشيخ المعمم كلّم السائق وأغلظ له القول متهماً إياه بالتقصير، والرجل أسود اللون الطويل النحيف أخذ يتفحص المكان بنظرات حادة كأنه يصور بعينيه المفتوحتين على وسعهما كل ما يجري حوله، بينما أخذنا أنا وابني الشاب نتجول في الأرجاء على بعد أمتار قليلة من الحافلة فلاحظت أننا نتوسط منطقة غريبة، أخبرت ابني بمرح، بأننا لو كنا في سفرة سياحية فإن الدليل سيختر حتماً هذا المكان بالذات للتوقف، فمن هنا نستطيع الوصول بسهولة إلى تلك الغابة كثيفة الأشجار وكذلك إذا أردنا رؤية نموذج للصحراء القاسية فإنه على مرمى البصر، أمّا هناك أسفل المرتفع الذي نتوقف عليه أبصرت أطلال مدينة تبدو مهجورة منذ زمن بعيد، إنها مدينة أثرية ولا ريب تذكرني بمنطقة "التل محمد" في بغداد لكنها أكبر. بعد ذلك انضممنا إلى السيدة التي كانت ـــ نظراً لوجود نقص في عدد الركاب ـــ تنفرد بالمقعد الأمامي للحافلة وهي تستظل بظل شجرة كبيرة على جانب الطريق، كانت امرأة ربما جاوزت الثلاثين بقليل، ليست من النوع الذي يواجه أحاديث الرجال بجفاء أو حذر، وهذا ما أغراني بالاقتراب منها ببراءة، بدت مهتمة بسرور حين

عرضت لها ملاحظاتي عن جغرافية المنطقة، ثم سألتني إن كان الشاب ابني فلما أجبتها بأنه وحيدي أخبرتني وهي بين الجدّ والمرح بأنه لو كان والدها معنا لأنّبني بشدّة على اصطحابه معي في مثل هذه الرحلة، لأنه امتدادي وعليّ دائماً محاولة إبعاده عن أية مخاطرة! سألتها إن كانت تعتبر رحلتنا هذه مخاطرة! فذكّرتني أن الليل سيحل وعندها لن يعرف أي منّا إجابة جازمة.

كلامها هذا صرف رغبتي بمواصلة الحديث معها مع أنها جميلة أكثر حين يفتر فمها عن كلمات مشفوعة بابتسامة دائمة، إنها امرأة طويلة ونحيفة، سمراء تضع شالاً رمادي اللون على رأسها لا يمنع رؤية شعرها الكثيف الأسود، لها عينان سوداوان صغيرتان تلفتان النظر بحركتهما السريعة في كل الاتجاهات وما يلفت أكثر فيها هو أنفها القصير إذ يتوهم الناظر أن شفتها السفلى وحنكها ناشزان عن وجهها لكني مع إطالة النظر اكتشفت أن ذلك يعطيها انسجاماً نادراً يجعلها في النهاية مثيرة لا تُمل. شعرت أنها محقة بكلامها عن ابني، حتى أنني وفي وفرة عاطفية مفاجئة اقتربت منه وأردت احتضانه لكني تراجعت كي لا أخيفه، ثم خمّنت أن هذه المرأة غير مرتبطة بزوج أو خطيب، ربما كان لها حبيب؛ سرّ صغير يختبيء تحت قميصها الأزرق الحريري وإلاّ لكانت ذكرتْ بفخر رأي زوجها أو خطيبها في قضية عارضة

كسفر ابني بدل رأي والدها، كان هذا مجرد تخمين ومحاولة لمعرفة الآخر ليس أكثر.

التفتنا إلى الشيخ وهو يصرخ بالسائق: أنت من أوصلنا إلى هذه الحال، حافلات أمريكا الملعونة وسائق لا يجيد إلاّ ولولة النساء أية بلوى أبتلينا بها؟. ما أحببت الليل يوماً في حياتي وفكرة أننا يمكن نقضيه هنا ترعبني كفاية ثم يأتي هذا الشيخ ليحفز قلقي أكثر، إنه يعبث بأعصابي، صحت به: إذا كنت تخشى الليل لم لا تدعو ربك يطيل النهار أو يصلح الحافلة؟ ضحك الجميع تقريباً وشعرت بالراحة لأن الرجل أبرمنا طيلة المدّة التي قضيناها قبل التوقف بالحديث عن الحلال والحرام والصبر والاحتساب، أليس الأجدر أن يرينا شيئاً من ذلك فعلاً! ثم أننا لم ننسَ اهتمامه بالحقيبتين "فاقدتي المالك" اللتين لهما حكاية رغم ندرتها إلاّ أنها حكاية بسيطة تبدأ حين انطلقت الحافلة بمقعدين فارغين فنبّهت السائق إلى ذلك لأنني أعرف حرص سائقي المركبات على امتلاء المقاعد دائماً، فأخبرني أنه سيكون بانتظارنا راكبان في الطريق عند العمود 91 وحين لاحظ استغرابي من الوصف أخبرني أن بعض المحافظات قد رقّمت أعمدة الكهرباء المزروعة على الطرق بينها لتسهيل الدلالة وربما لسبب آخر يجهله الناس، وعندما وصلنا لم نجد أحداً لكننا وجدنا تحت ذلك العمود حقيبتين رجّحنا

أنهما تعودان لصاحبينا اللذين لابد أن يكونا بالجوار يتواريان لسبب ما وسيظهران في أية لحظة، كانتا من حقائب السفر متوسطة الحجم لون أحداهما أسود والأخرى أصفر لا أتذكر أني رأيت حقيبة بلونها. انتظرنا مدّة نفد صبرنا فيها فألححنا على السائق أن يفعل شيئاً لكنه ظل حائراً، بعد فترة اضطراب اقترح الشيخ أخذ الحقيبتين والمغادرة وتبرير ذلك: ضمان السائق أجرته بوجودهما معه وحفظ الحقيبتين لأصحابها من ضياع محتمل، لم نجد سبباً للمعارضة مدفوعين برغبتنا مواصلة المسير وعدم التأخر أكثر. وضعنا الحقيبتين في المكانين الفارغين ونسيناهما تقريباً حتى قطع الشيخ واحدة من مواعظه فجأة ليقول: معاذ الله أن نفتح الحقيبتين أو نطلع على محتوياتهما. لم يجبه أحد منا لأننا لم نكن قد فكرنا بذلك؛ ومع هذا فإنه عاد بعد فترة للقول: أظن الأحوط الاتفاق على واحد منا ليقوم بفتحهما لنطمئن إلى خلوهما مما قد يؤذينا، مادة متفجرة مثلاً أو ممنوعة فنُمسك جميعاً بتهمة ثابتة. بعد فترة صمت قصيرة قال: أقسم أني لن أشي بما فيهما لأنه ليس من العدل الثرثرة بخصوصيات الناس. ثم ترك مكانه وتحول بمشقة حيث كانتا ليفتحهما بصمت ولهفة ولما انتهى لم يعد إلى مكانه الأول بل جلس بينهما ثم أجرى بعد ذلك تعديلاً على خطته بأنه سيحتفظ بهما وأعطى السائق رقم هاتفه مشفوعاً بذكر أسم أسرته

المعروفة جداً في المدينة ليتصل به فور ظهور المالكَين، ولما تكلّم السائق بأمر أجرته ذكّره الشيخ بأن الاتفاق هو أن يأخذها من صاحبي الحقيبتين مباشرة. هذه هي حكاية الحقيبتين وحين ترجلنا جميعاً بعد تعطل الحافلة كانتا عند الشيخ كأنهما عائدتان له أصلاً و لم يتركهما حتى وهو يكاد يضرب السائق الذي ما أن خلّصناه من هجمته حتى أخبرنا بمرارة أن الركاب يقلّون في هذا الوقت إلى درجة أن لا أمل في قدوم حافلة بعد.

نظر الشيخ إلى السماء ثم إلينا ليقول كأنما يكلم نفسه: لم أسافر قط إلاّ وأنا حافظ وضوئي وها هي صلاة المغرب قد حلّ أوانها. وضع الحقيبتين أمامه ثم بدأ صلاته، لكنه اضطر لتركها بعد ثوان لأن الأرض اهتزت بضع هزات سريعة أمسك الشيخ الحقيبتين بقوة واتكأ على صخرة قرب السيارة فيما اتجهنا أنا وابني والسيدة إلى جذع الشجرة التي كانت تظللنا لنستند إليها و لم انتبه كيف تصرف السائق والرجل الأسود الذي لو تكلم كلمة واحدة لعرفنا على الأقل جنسيته. تبع ذلك الاهتزاز صوت عال دوى في الأرجاء لم يمهلنا لنعرف الاتجاه الذي قدم منه فدارت أبصارنا دورة خائبة غبية ثم عدنا ننظر لبعضنا بحيرة وفزع، صوت غريب لا يمكن وصفه إلاّ بتقريبه من بعض الأصوات التي نعرفها، هو مزيج من عواء الذئاب الجائعة وفحيح

الأفاعي المتربصة وصراخ السعادين الشاذة هذا ليس كل شيء بالتأكيد وإنما هذا ما يخطر ببالي فقط، يبدأ الصوت كانفجار قريب ثم يتحلل بتعدده إلى عدّة أصوات ثم يتلاشى تدريجياً ويبتعد لكنه يتضح كلما ابتعد وتلاشى ثم يختفي ويسود هدوء خادع لأن الانفجار يدوي من جديد لصقنا وهكذا فما الذي يحدث؟ دقائق مريبة، انفجار يضعنا على حافة الجنون، أصوات تأخذ أرواحنا معها إلى المجهول، صمت يطمعنا بالنجاة، يخدعنا لنكتشف أنه مجرد أمان وهمي.

في تلك الوهدة الخالية لم نجد أفضل من الهرب، هربنا سريعاً دون اتفاق على خطوة أو اتجاه، هربنا لنهرب، شعرنا أن الخطر يداهمنا بشكل سريع ولا وقت لدينا للتفكير. ما وعيت إلاّ وأنا وسط المنطقة الأثرية التي سبق وأن ذكرتني "بتل محمد" في بغداد توقفت فوجدت أن ليس معي سوى المرأة تتمسك بكم قميصي مذعورة وقد فقدت شالها، سألتها: أين ابني؟ هزّت رأسها نافية أن تكون على علم بشيء عنه، حررت يدي منها عائداً وأنا أرتجف هلعاً على مصير الولد، ركضت باتجاه ما أولاً لكني بعد تجاوزي عدّة حيطان شعرت أنني أسلك اتجاهاً خاطئاً للخروج فعدت أدراجي لأجد أن المرأة ما زالت تتبعني لم أعرها أهمية وركضت باتجاه آخر ولما أدركت خطأ اتجاهي هذا أيضاً عدت ألهث تعباً فوجدتها تنظر إليّ نظرة خوف وتوسل

فتوقفت قربها لأرتاح قليلاً وأحاول إعادة التوازن لنفسي فقالت لي: لقد تهنا، أضعنا طريقنا. قلت لها بتصميم: ليس بهذه البساطة. قالت: أقسم أننا ضعنا، إنها دوامة. قلت: لكن الولد ابني. ضربت براحة يدها فخذها أسفاً وحسرة. في هذه اللحظة هزّنا الصوت المرعب ثانية، أحسسناه يقترب ولا يفصله عنا سوى هذا الحائط المتداعي أو ذاك. تلفتنا بحثاً عن مهرب فرأينا بناءً متيناً له باب كبير فركضنا نحوه، دفعناه فانفتح بسهولة، دخلنا وحاولت إغلاق الباب ورائي لكن المزلاج كان صدئاً لا يستجيب فتركته، أصبحنا في غرفة مربعة الشكل معتمة تتخلل جدرانها المتآكلة ثقوب يتسرب منها بعض الضوء المتبقي من النهار سمحت لنا برؤية ما حولنا، أطبق الصمت على المكان إلاّ من أصوات خفيفة لحركة فئران أو عقارب أو حتى أفاعي مذعورة من اقتحامنا مكانها فجأة، ما أن استقر بنا الحال قليلاً حتى تذكّرت ابني، الشاب الذي فقدته وهو على مقربة مني في لمح البصر يا ربي المعبود؛ هل يمكن أن أفقده بهذه السهولة؟!

أبدت المرأة استغرابها من أن الشيخ حين عصف بنا الصوت لم يفزع مثلنا وبقي جالساً على الصخرة ينقل بصره بين الحقيبتين يطمئن لوجودهما جواره كأنه لم يسمع، هل كان أصمَّ؟! سألتني فقلت لا، ألم يبادلنا الحديث كإنسان سوي لا عاهة فيه؟ هل تظنين أن ابني نجى؟

قالت: إنه شاب قوي وذكي وقادر على تدبّر أمره. كلامها هذا بثّ شيئاً من الهدوء في نفسي إلاّ أن لوعتي عليه لم تفتر، من السهل عليها قول ذلك إنه ابني وليس ابنها على أية حال، وحيدي وأملي في البقاء .. هذا الأمل في المهب الآن، قلت لها: أنا أب رعديد لو خرجت وافتديته لكان أهدأ لروحي الملتاعة وأبرد لناري الملتهبة. قالت: هل من الصواب أن تفني وجودك في سبيل امتدادك؟ فرصتنا هي وجودنا لنجهد أنفسنا في محاولة الحفاظ عليها. شعرت أن صوتها ترقق حين تفوهت بتلك الكلمات كأنثى تتحبب لا كزميلة في عملية هرب اضطرارية خطرة كأنها وهي تريد الحفاظ على حياتي، توحي بأهمية ما تريد، امرأة بارعة بالإيحاء.

نال التعب منّا فافترشنا الأرض جلوساً وبعد ساعة من الهدوء قطعته بين الحين والآخر حركة في الجوار لم نستطع تمييزها، قلت في نفسي قد يكون ابني قريباً وربما مرّ صامتاً باحثاً عني بينما أنا ألوذ بالصمت لأنجو، لكن ذلك احتمال ضعيف أيضاً كيف أستطيع الاعتماد عليه وأعرض نفسي وهذه المرأة إلى ما لا يمكن معرفته من الأخطار؟. فكرة التواجد مع امرأة في مكان منعزل لليلة وتحت أي ظرف لابد أن تفضي إلى التفكير بها كأنثى، والوصول إليها صار في كفة والخطر المحدق وقلق افتقاد الابن في الكفة الأخرى وإن كانت راجحة، جهتان

من التفكير يمكن لهما السير بانتظام وسلام دون تعارض إلى النهاية، وإذا كنا لا نمتلك إزاء إحدى الكفتين إلاّ الحظ فإن الأخرى تنتظر حركة من أحدنا، مبادرة، فأينا سيبدأ وكيف؟ انشغلتُ فترة بأفكاري هذه فإذا بالمرأة تنتظم أنفاسها فعرفت أنها غطت في نوم عميق. حين عادت الأصوات ثانية كانت ثقوب الحائط تسرّب كمية من الضوء تكفي لإعلامنا أن الصباح قد حلّ منذ مدّة ليست قصيرة وأننا قضينا ما تبقى من الليل كله نائمَين، كانت الأصوات قريبة كأنها ستقتحم المكان بعد لحظة، رأينا في الجهة المقابلة للباب باباً آخر اضطررنا للانحناء لصغره وعند ولوجنا فيه وجدنا أنفسنا في غرفة تشبه الأولى لكنها أصغر بكثير بحيث أننا في أية حركة كنا نضطر إلى التلامس فأغراني ذلك بالبقاء وأملت أن تعطينا تلك الأصوات اللعينة فسحة ليكون فيها ما قد يكون، لكني استدركت مؤنباً نفسي على تهاويها هذا بينما ما زلت أفتقد ابني وليس لدي أية فكرة عن مصيره، فلذة روحي ووحيدي، فأية أفكار طائشة هذه التي تراودني رغم إشرافي على هلاك وشيك؟ اللعنة على الشيطان الرجيم، ارتعبت السيدة من ضيق المكان رعباً مضاعفاً وضاقت أنفاسها فقالت بصوت متهدج: هذه الأشياء تقترب بسرعة هل تظن أننا الناجيان الوحيدان؟ قلت: نحن محظوظان على أية حال، آه هذه الأصوات اللعينة تقترب تعالي

ندخل هذا الباب الصغير، كان باباً آخر أصغر في الجهة الأبعد، حشرنا جسدينا فاجتزناه بصعوبة إلى غرفة واطئة أضيق من سابقتها وأخذنا وضعاً ملتصقاً مؤذياً لكن لا خيار لنا شعرنا أن السبل قد ضاقت بنا وعلينا التفكير بشيء غير الهرب فقررنا سدّ الباب إذا بوغتنا أسندناه بظهرينا، كنّا نعلم أنها محاولة بائسة لن تعطينا إلاّ طمأنينة زائفة خادعة ولكن ما الذي يمكن أن نفعله أكثر؟

مرّت دقائق قالت المرأة بعدها: لم أعد أطيق الانحناء. كنا متلاصقين من الخاصرة، لم تنتظر إجابة مني بل تحركت برشاقة لتكون أمامي، قلت: هذا أفضل فلا يجب أن تتعرضي لخطر قد يأتي من الباب. كانت نوبة شهامة في غير محلها لذلك فإن المرأة أغفلتها تماماً. أصبح وضع جسدينا لا يمكن احتماله أو تجاهل النداء الملح، ارتجفنا وتسارعت أنفاسنا ومع حرّ المكان وضيق التنفس تعالى صوت الشهيق والزفير إلى درجة تثير الشفقة إلاّ أننا مضينا إذ رفعت وجهها فالتصقت شفتاها بشفتي وبدأنا اللعبة لكنها بعد قليل تملّصت مني لتقول بصوت واهن وعينين مغمضتين: في احتمال؛ إن الله قرر إنقاذنا فإنه سيتراجع بالتأكيد رداً على ما نحن مقدمون عليه. قلت: تريدين أن نترك ما نحن فيه لننتظر احتمال؟! قالت: منْ يستطيع الجزم؟ في هذه اللحظة اقتربت الأصوات المتوحشة من الباب الأخير وتركنا

محاولة صدها لأن المرأة أخبرتني أن باباً أصغر لا يزال أمامنا، لم تكن باباً هذه المرّة، إنها كوّة مقوسة من أعلاها تشبه بوابة أقزام انخفضنا لننظر ماذا بعدها، فوجدنا أنها بداية دهليز طويل مضاء من نهايته البعيدة قطره أقل من قطر برميل، رفضت المرأة أن تتقدمني أو تتأخر عني بسبب الخوف فاحترنا لحظة لكن صيحة مفزعة جعلتنا ندخل سوية بسرعة ملتصقين ودفعنا جسدينا بأقدامنا إلى الأمام إذ لم يكن متاح لنا سوى هذه الحركة فانهارت البوابة وطمر المنفذ خلفنا وصرنا كلما تقدمنا انهار الجزء الذي نجتازه فوراً فكان الدهليز في النهاية باتجاه واحد.

قلّ الهواء حدّ الاختناق وأصبح الحرّ لا يُحتمل وانهمر العرق من جسدينا حتى تبلل كل ما علينا من ملابس، تباطأت حركتنا بسبب التعب، لم تكن المرأة تتنفس إنما تصرخ مع كل شهقة هواء، رفعت رأسي لأنظر المسافة المتبقية حيث الضوء الآتي فآمنت باستحالة المهمة لأن قوانا ستنتهي قبل أن نصل بمسافة بعيدة، صارت المرأة عصبية بهستيريا تبعث على الجنون قطعت بأسنانها آخر زرّ في قميصها المرفوع بفعل الحركة كأنه سيقتلها وبصقته قريباً من أذني مبللاً بلعابها وعرقها، خصلات من شعرها المحمّل بالتراب غطّت نصف وجهها تقريباً فتطيّرت لأني لا أستطيع فعل شيء لها، فكرتُ أن قلبها سيتوقف في

أية لحظة، كنت أحسّه يضرب أضلاعي بسرعة وقوة مرعبتين، فقررت تنفيذ الحلّ الأخير المتبقي لنا، قلت: في احتمال أن الله لم يقرر إنقاذنا وأن ابني قد هلك، امتدادي. صمتتْ فأكملتُ: ألسنا نوشك على الهلاك أيضاً؟ بكتْ فأكملتُ لاهثاً: واحد منا سيخرج، أسهل من أن نكون معاً، سيكون هذا أنت لأني سأدفعك ما استطعت، ستكملين الطريق إلى الضوء وسيطمر الدهليز بعدك مباشرةً، لن ينفعني شيء، لكني لا أريد أن أنتهي بهذه الطريقة، سأحمّلكِ امتدادي ولن انتظر احتمالاً لأنه لم يعد ثمة احتمال، تعالي وخذي شيئاً من وجودي، فهدأت وسكنت دقائق حتى انتهيتُ وخارت قواي، ساعدتها على الانزلاق فوق جسدي، كان العرق ينضح منا يغسلنا الاغتسال الأخير، رائحة التراب الخانقة تطغى، تخطتني وبدأ أثر قدميها يخرب جدران الدهليز فيتساقط التراب على رأسي ويتلاشى الضوء أو ينعدم، استسلمت وتمنيت بصدق لم أعهده في نفسي أن تمضي الأشياء أسرع، ثم شعرت أنها تتوقف، سمعتها تنتحب ظننتها ستندبني في لحظات لن تنفعني فيها ندبة فقلت بوهن: أمضِ بصمت فقط. قالت: هناك ما يجب أن تعرفه.. أنا عاقر.. عاقر.

انتهت .

بغداد/ الثلاثاء 6:11: 2016

جزء من حياة إمرأة عادية

حين جاءت من القرية إلى المدينة عروساً لفائز لم تكن لديها صورة واضحة عنه سوى أنه ولد أبيض البشرة وليس في وجهه شعر ولم تقتنع بذلك كلياً لأنها لاتتذكر صورة لوجه أبيها دون لحية. ومع أن أمها أكدت أنه ولد حلو الا أن قلقاً ما بهذا الشأن بقي لديها فالمقابلة القصيرة "الشرعية" التي جمعتهما قبل اعلان الخطوبة لم تتح لها رؤيته لأن أباها كان يركز نظراته عليها فأربكت ولم ترفع بصرها عن الارض حتى انفضّت الجلسة وهذا ما دعاها للجوء الى خبرة أمها وقد كانت الأم محقة تماماً في أنه حلو بل أنها قصرت في وصفه فهو ليس حلو فقط وانما هو ملاك تائه جمالا ودلالاً.

بعد إسبوع من الزواج أكدت لأمها أنها تلقت هديتها الأكبر من الرب مباشرة، فائز. أصبحت الساعات التي يتركها فيها على قلتها، حزينة وتشعرها بفراغ مضجر ومقلق حتى يعود فتعود الاشياء الى طبيعتها ويعود الفرح لذاتها. كل ماتحتاجه أو يتعلق بها صار يمر من خلال فائز وهو بدوره يعزز ذلك بالكلام الهاديء الدافيء والضحكة

الدائمة. جاء الشهر الثالث بالخبر السعيد إذ يبدو أن فائزاً صغيراً سيملأ احشاءها، ياللفرحة التي لاتحد والسعادة التي لا تأتي منفردة فها هو يأتي بخبر آخر هو أن الرجل الذي تعهد بإلحاقه بدورة تدريبية تؤهله ليكون منتسباً بالقوة الجوية قد وفى بوعده، وسيلتحق بعد أيام قليلة مع آخرين. لم تسعد لهذا بل شعرت بانقباض بدا واضحاً على محياها حتى أنه اضطر مع انهمار دمعها الى ترديد أن هذا سيكون جيداً لحياتهما وحياة ابنهما فقد أتعبه حمل الطابوق والجص والأجرة الزهيدة، ثم تساءل بمرارة ويأس: الى متى سيدوم هذا الحال؟ صحيح أني سأفارقك إسبوعين لكن سيكون هناك مثلهما لنا وحدنا. بقي في داخلها قلق لاتعرف سببه، ليس الفراق وحده بل يرافقه شيء من خوف عميق متغلغل لا تستطيع التعبير عنه بكلمات، تحسّ به كلما ذكر الأمر كشيء قدري ثابت لن تتمكن من الوقوف بوجهه.

مضت أربعة عشر يوماً على غيابه عنها ليأت بعدها محملا بالاشواق ثم مضت مثلها كان في حجرها ثم عادت الأولى لتكون أقسى وأمر وأثناء ذلك كانت بطنها تكبر وتزداد ثقلاً. صباح يوم كان قلبها يدق بسرعة وبدت غير مسيطرة على أطرافها، قدماها لاتطاوعانها على الجلوس، صاحت عمتها: اهدئي يا ابنتي هذا يضرّ بحالتك حتى لو تأخر ليوم، أنت صغيرة ولم تجربي بعد غياب الأزواج كما خبرناه

نحن. اختلاجة في صوت العمّة فضحت قلقها هي الأخرى وأن ماقالته لتهدئة كنتها لا أكثر. ردت عليها: عمّة في اتصالي الأخير شعرتُ أنه يريد قول شيء ثم أخبرني أنه سيقطع الأتصال و لم يوضح لي لماذا؟ عصر اليوم ذاته الذي لم يعرف جسدها وقلبها السكينة فيه جاءت الاخبار تترى: كل من في القاعدة أسرى. لا .. ليس كلهم بعضهم نجا. البعض عند الأهالي ضيوفاً محميّن. مجرد احتجاز لا أكثر وستقايضهم الحكومة بتنازلات. يُعرضَون الآن في التلفزيون يتكدسون بشاحنات، يهشونهم بسعف النخيل هشاً رفيقاً، أذن لا خطر.. لا خطر. تجلس هي أمام الشاشة التي أعادت الشريط عشرات المرات تبحث في الوجوه، تدقق علها ترى وجهه من صورة أو لمحة مهما كانت قصيرة ستعرفه بالتأكيد، تراءى لها أنها رأته يجلس في بطن احدى الشاحنات محاطاً بزملاءه وفي عينيه نظرة يأس كسيرة ثم استدركت أنها ربما توهمت. قال لها في آخر اتصال له أن أشياء غريبة تحدث في المعسكر وأنه وكل زملائه قرروا المغادرة بمجرد معرفتهم أن الطريق آمن. وحين سألته عن هذه الأشياء الغريبة ولماذا لايكون الطريق آمن؟ أخبرها محاولاً الاختصار أنها دعايات واشاعات كثيرة. ثم صمت جهاز الاتصال.

نواح عمتها وبكاء أخواته والقلق المرسوم على الوجوه لا يعطيها فرصة تكفي لاستيعاب كل الذي يحصل باتت تشعر أن ثمة فجوة تكونت بين احساسها وادراكها للأشياء ووجود هذه الأشياء أو مايحدث منها فعلياً ويستجد ويتطور وإن هذه الفجوة آخذة بالاتساع الحثيث، أخيراً استقر الحال بها أن روحها تعلقت بشيئين فقط، الشاشة وجهاز الاتصال المغلق. مضت أيام لا تعرف عددها لأنها لا تعلم متى يبدأ الليل أو ينتهي وكذلك النهار، لايعنيها كل هذا الاّ أنها حين يسود الهدوء نسبياً ويخلو البيت تقريباً وتصمت الأصوات إلاّ من أنين عمتها الواهن يخطر ببالها دون أن تعير اهتماماً، أن ليلاً قد حلّ وحين تعود الحركة ثانية تفهم أن نهاراً قد جاء. الشاشة عرضت نفس اللقطات حتى ملت أو خجلت من إعادتها فتركت المحاولة لذلك لم يبق لديها سوى جهاز الاتصال الذي لا يتصل، ما تزال ممسكة به تنتظر رنة منه وتحاول كلما بلغ الجزع بها حداً لا تحتمله الاتصال لكن الرد يتكرر : الجهاز مغلق أو ... عيناها لا تقويان على الاغماض كأن جفنيها قد سُمّرا بمسامير الى جبهتها، بعض النسوة يحاولن اطعامها متوسلات بالذي في بطنها أن لا ذنب له لتجويعه ثلاثة أيام تظن أن التي تكلمها هي أمها تشفع كلامها بالدمع المنهمر، تحاول أن تأخذ منها الجهاز برفق وتمددها على فراش بجانب الحائط الذي ألصقت

ظهرها اتكاءً عليه لكنها تنتفض بقوة لتقاوم محاولة سلبها الجهاز ونجحت انتفاضتها في الاحتفاظ به وبين الشدّ والجذب تفطنت الى أن مدّة طويلة قد مرّت دون أن تحاول الاتصال فرعشت أصابعها ونقرت زر الاتصال ووضعت الجهاز عند اذنها فانفرجت بعد لحظات أساريرها واتسعت عيناها، التفتت الى المرأة التي تظنها أمها مشيرة الى الجهاز بأنه تلقف الطرف الآخر لم تعرف ما تفعل في هذه الثواني بانتظار صوته، صالبت عودها وحاولت الوقوف لكنها كانت أوهن من ذلك بكثير فترامت نحو الحائط ثانية:

- ألو.

اغتمت فجأة وتغيرت سحنتها وتلفتت مرتبكة فالصوت ليس صوته، ردّ مرة ثانية:

- ألو.

استجمعت شجاعتها وما بقي لها من قوة لتقول بصوت خافت:

- ألو.

- منْ المتكلم؟

- زو.... زوجته أريد فائز.

اختلط الصوتان في اذنها بعد أن عتم كل المحيط من حولها حتى أنها لم تميّز الاول من الثاني، هل صوت النسوة اللواتي فزعن نحوها أم

الصوت الآتي من الجهاز، لكنها صارت تشعر بوضوح بأنها لم تعد على الارض بل محمولة أو مرفوعة بمسافة عنها. صوت ظل يتردد صداه: لم يعد فائزاً، إنه خاسر .. ألله أكبر، ألله اكبر. صوت: انها تموت، ماتت.. ماتت.

إله رخام، إله رماد

يقف نصف الإله الرخامي شامخاً على الضفة، ويرمي نظرته المحذرة أو المتوعدة حيث الجهة الأخرى عبر نهرنا العجيب. يده اليمنى تشير بالسبابة مؤيدة نظرة وجهه الرجولي الجادة في اتجاهها وحدّتها، منعاً لأي احتمال في شك أو التباس.

وحين وصفت التمثال الواقف هنا منذ زمن بعيد.. بأنه نصف إله، ذلك أن إلهنا الكلي كان على قيد الحياة، يمارس مهامه الدنيوية بكفاءة تامة، يقتل بمهارة، ويأكل بنهم، ويضاجع بلا انقطاع، دون أن يترك دليلاً على ذلك في أي مكان، فديدنه المباغتة مذ عرفناه، ما كان أكفأه من إله! إلهنا.. وحكايته مع الآخر ، نصف الإله الرخامي أعني، واحدة من مآثره السرمدية، فقد كان صنواً له، حانياً ومسانداً، حتى دانت لهما الرقاب وتذللت الصعاب، بيد أن اليد الأعلى بقيت على الدوام لإلهنا، كلي الإرادة، وفي كل المرات، إلاّ لحظة مختلفة برقت، واحدة فقط، خرجت عن السياق، لُمِحَ فيها احتمال بسيط لتبادل أدوار عابر، لم يحتملها الإله فكسر فيها العظم فورا ودون تردد، لأنه

أدرك بغريزته التي لا تخطيء تلك اللحظة البارقة، رمق رفيق دربه بنظرة الهية غضبى أحالته خلال ثوان قليلة الى قطعة رخام داكنة.

الأرجح أن الأخير حين أيقن مآله المحتوم، اشار بسبابته الى الاله غاضباً أو مذكراً بفضائله وصولاته في مقارعة الخصوم، وربما مستنجداً بالأخوّة التي تصورها رصيداً ضامناً، لا أحد يعلم فالوقت لم يسمح بالإفصاح، كانت مجرد ثوان هاربة خنقت بلا رأفة حكايات عمر آزف، تصالب الجسد على هذه الحال، وسكتت إلى الأبد أنفاسه، فهدأ الإله وزالت عنه الغضبة العارمة، تأمل فعلته منتشياً، متسائلاً بخبث في نفسه عما سيفعل بالتمثال؟ فجاءه فوراً ايحاء ماكر، فهو خير الماكرين طراً.

أخذه مجللا بحزن بائن جهة النهر، على الضفة أوقفه وحَرَف اتجاه الوجه منه والسبابة المتوعدة نحو الضفة الأخرى، كانت تدور في رأسه فكرة هي أن وجوده في هذا المكان هكذا سيذكّر الأعداء بمعارك إسطورية في وحشيتها لا تمحى من الذاكرة حيث سيكون بمتناول رؤيتهم مدار الساعة، ومن ناحية أخرى، سيذكّر التابعين بمصير ينتظر كل من تراوده نفسه بالتطلع أبعد من أنفه، لا هوادة ولا شفاعة في ذلك لعزيز أو قريب.

ومع أننا جميعاً كنا نعلم الحقيقة، لكن الإله كان يصرّ على روايته بأن الخالدين من الالهة وحدهم من يتحولون الى رخام صلد يقاوم شتى العاديات المحتومات عبر الازمان، الهرم والتكسر والنسيان، وحتى العفونة، محتفظين ببهاء هيئتهم وتأثيرها.هذه هي لعبته المفضلة، خلط الاوراق والتورية وبلبلة العقول، غايته في ذلك السخرية، سخرية ربوبية هادفة، فهي طريقة مجربة، يضيع فيها الحد الفاصل بين الجد والهزل، فندور في فلك حائر كالمعتوهين. لكننا لم نكن معتوهين بالكامل، فقد استغللنا بخبث فطري تماديه وهو يبكي رفيقه بأن شاركناه ففهم ذلك على انه تملق معتاد، فأظهر رضاه مطمئناً، ثم بالغنا بتوقير نصف الإله الذي عطّله عن العمل، فلم يعترض لكنه شعر بخيط من الشك مريب، وجزعنا بعد ذلك اشدّ الجزع، فلم يعترض كذلك لكنه عرف اننا نقصد شيئاً آخر عصي على البوح. ترك هو حزنه على رفيقه مشمئزاً غير مكترث بدأبنا على مسح الجسد الرخامي باوراق الورد الرقيقة وغسله بالعطر، وكنا نقدر مزهوين في سرّنا كم يكظم من الغيظ وهو يرى نساءنا تتمسح بحذائي التمثال، ويقمن الصلوات عنده ويطلبن منه معجزات تخص الحمل والإنجاب أو الحب، وقد ادّعَين فيما بعد، أن نصف الإله قد وهب لهن ما طلبن دون ابطاء.

شغلتنا لعبتنا المسلية هذه مع ربنا سنين طويلة، ولم نفطن الى ما كان يفعله خصومنا في الطرف الآخر من النهر، النهر الذي سبق أن وصفته بـــ" العجيب " وعجائبيته تأتي من عدم استقراره على حال فهناك تغيّرات عديدة أصابت تأريخه واحتفظت ذاكرة الناس بها، منذ صورته الأولى حيث كان غرينياً بلون الطين، كثيفاً بطيء الحركة، متماسكاً، ثم قدم عليه زمن تحول فيه الى احمر قانٍ خفيفٍ سريع الجريان، بعد ذلك تغير الى احمر قاتمٍ بلون الصدأ، كريه الرائحة.. اما الآن، في زمننا هذا، فهو بلا لون، راكد، شحيح يكاد المرء يجتازه فلا تبتل ركبتاه، وهو الذي أغرق مراكباً متينة عليها بحارة ماهرون.

نحن المشدوهين بين تقلبات نهرنا ولعبتنا الخطرة مع إلهنا المزاجي، لم نجد وقتا يكفي لننتبه الى همهمات خصومنا الازليين، أو صمتهم وما يمكن أن يخفيه ذلك الصمت المريب! أعطيناهم أذننا الطرشاء تماماً. حتى جاء يوم تلبدّت سماؤه بغيوم قاتمة كثيفة، تنذر بما تنذر، وبينما نحن متحلقون القاعدة المرمرية الضخمة لتمثال نصف الإله العاطل، واذا بأسراب من طيور كبيرة الحجم غريبة الشكل، تحلق دفعات دفعات من تلك الضفة، احترنا في أمرنا، قال أحدنا متطيراً: اهربوا انها طيور أبابيل سترمينا بحجارة من سجيل. نحن القلة القليلة قد تماسكنا وخجلنا من الهرب لكن هول المنظر قد شلّ أعضاءنا وأرغمنا جميعاً في

النهاية على البقاء ورؤية المنظر المهيب ..طيور هائلة رمادية تخترق الغيوم، وتجتاز سماءنا دون أن تعيرنا اهتماماً، كأننا غير موجودين، واذا كان هذا قد هدّأ من روعنا قليلا، فانه لم يخلُ من استشعار بالصِغر!! كانت أعناق الطيور تشرأب عالياً وقد وصلتنا أصوات المرح والحماس آتية من الضفة الأخرى، أعداؤنا ينظرون مشرقين الى صنيعتهم المحلقة.. انتهى وقت الصمت اذن! هذا ماكانوا يعملون عليه بصبر! يربون طيوراً عجيبة ! لايمكن ان تكون طبيعية أو معدنية، بل هي خليط من هذا وذاك.. ولابد أن عملهم هذا انساهم عداوتنا، شعرنا انهم حسموا أمرهم بهذا الشأن وتجاوزوه وداسوا في طريقهم نحو الافق على الجراحات، وتأكدنا من ذلك حين أيقنّا أننا لم نشكل همّا بالنسبة الى الطيور السائرة نحو غايات لايمكن أن ندركها، على الأقل في وقتنا هذا. فجأة .. نظر آخر الطيور إلى الأسفل، دهشنا منه وهو يتنزّل من عليائه شيئاً فشيئاً، اقترب من التمثال فتفرقنا رعباً مسمّرين بصرنا به، عرفنا أن غايته التمثال، صفق بجناحيه أسرع ليتوازن لا ليخيفنا، أمسك التمثال بمخالبه القوية، رفعه قليلاً ،لا ندري ما الذي أوحى إلينا انه سيرميه في النهر، لكنه لم يفعل.. دار به دورة كاملة مغيراً بذلك اتجاهه إلى الجهة المعاكسة، جهتنا، وما أن ثبته على الأرض

بهدوء حتى لحق سريعاً بالأسراب المبتعدة، واجهَنا التمثال بنظرته الرجولية الحادة، وسبابته تشير الينا مهددة متوعدة.

الآباء العنيدون

ظلّ طيف أبي المغدور، المظلوم، يتردد بإلحاح عليّ مذ وعيت حكايته، حكاية سمعتها من جدّي مرّات عديدة، أخالف في هذا غيري إذ إن الشائع هو أن يسمع الحفيد حكايات جده تتنزل من فم أبيه، أبي مات قبل جدّي هذا هو السبب، أكد جدّي في كل مرّة وهو ينوح على ابنه، أبي، أن المرحوم كان الشجاع من جيله بين فتيان الحي قاطبة، لم يكن من سبب يحول دون اقتناعي بتلك الفكرة، وقد كان الناس ينظرون إليّ نظرة كسيرة، نظرتهم الى يتيم، يترفقون بي كما يجب الترفق باليتامى، إلاّ مرّة واحدة حين التقيت بأحد الرجال الساخرين بطبعهم، فقد تكلم بطريقة مغايرة شدّتني إليه، قال: أعلموه الحقيقة ــ يقصدني ــ لا تخدعوه لعله يفلح أن يصير مختلفاً، ألا يُخرج الحي من الميت؟ ثم التفت إليّ وعلى وجهه نظرة خبيثة وأكمل: بني كنا شباباً نتعارك كثيراً مع شباب الأحياء الأخرى، كان أبوك يفرّ من المعركة دائماً، لا تنس هذا.

و لم أنس ذلك أبداً، أرّقني أن أبي لم يخض معركة حقيقية واحدة في حياته، أصبح كلام الرجل وضحكته الهازئة كابوساً يلازمني. في أحد ملاعبنا مع أولاد حي مجاور، استغرب ولد من الخصوم وجومي وانشغالي عن مرح اللعب فأخذني جانباً وساءلني حتى حكيت له حكاية أبي وكلام الرجل الساخر، فما أسرع ما ترقرقت الدموع في عينيه مما أثار استغرابي ثم أبي أخذت دوره في المساءلة حتى أخبرني أنه يمرّ بأيام عصيبة تشبه كثيراً ما أمرّ به، وبعد تداول طويل بقضيتنا التي أصبحت قضية واحدة، توصلنا إلى أننا لن نكتشف الحقيقة مهما جهدنا أنفسنا، وأنه لمن العبث الاستمرار في تعقّب أثر من صار تحت التراب منذ زمن، فتركنا القضية وزيادة في الاطمئنان إلى أن أحداً من أبنائنا لن يعاني ما عانيناه قررنا، أنا وصديقي الذي كان خصماً لي من حي شهد معارك شديدة مع حينا فيما مضى من أجيال، نبش قبري أبوينا والتصرف بجثتيهما بطريقة نقطع بها دابر الفكرة المؤرقة تلك.

اتفقنا أن الموعد هو انتصاف الشهر حين يصبح القمر بدراً، أخذنا معولينا وسلة من الخوص لإخراج الترب، التقينا في مكان نسميه " ذيل الأفعى" في الطريق المؤدية للمقبرة الكبيرة، كانت الطريق الترابية تمتد أمامنا كأفعى عظيمة مسترخية في ليل موحش، صمتنا أول الأمر ثم أخبرت صاحبي بأني أحس بشيء ما سيحدث لنا في هذه الخلوة.

صمت قليلاً قبل أن يجيب: الذهاب الى المقابر ليلاً شيء مكروه. سألته بعد لحظات: ماذا تعني بمكروه؟ وبعد صمت أطول هذه المرة أجابني: ليس السوء في التواجد هناك ولكنه العبث بحياة الآخرين، حياة غير حياتنا.

- ما زلت أحس بأن شيئا سيئاً سيحدث لنا، هل نعود؟

- كدنا نصل. في تلك اللحظة التي شارفنا فيها على المقبرة خرج شخص منها يركض، رمى معولاً عريضاً كان بيده، عرفناه إنه صديق. ناديناه لكنه مرّ قريباً منا مسرعاً مذعوراً بالكاد يتنفس. ثم خرج آخران يقتفيان أثر الأول وحالهما كحاله هلعاً واضطراباً، وقد عرفت أحدهما والآخر تعرف عليه صاحبي الذي بادلني نظرات مغزاها سؤال: هل سبقنا شباب الحيين الى ما عزمنا عليه؟

تسمرنا في مكاننا حائرَين للحظات، فخرجت مجموعة راكضة يصدم أحدهم الآخر استعجالاً وارتباكاً لكنهم في النهاية انتظموا في طريق العودة كل منهم يحث الآخرين على الهرب، ميّزنا أكثرهم وكان بينهم ولد مقرب فسددنا عليه الطريق وسألناه عن الأمر، كان يلهث ويرتعد خائفاً حد الموت، أشار أولاً بيده نحو المقبرة ثم قال بكلمات متقطعة: الآباء .. آباؤنا يحتلون المقبرة يجلسون على شواهد قبورهم، مخيفون .. مرعبون، لحاهم مطلقة ورائحتهم كريهة،

وسخون عراة، يضحكون منا .. من قرارنا نبش قبورهم، مستعدون ينتظرون، ثورة.. إنها ثورة الآباء .. أخذ بعضهم أبناءهم ومضوا معاً إلى القبر وأغلقوه والبعض الآخر ينتظر وما بدلوا تبديلاً، بهتنا لحظة فوجدها الولد فرصة سانحة ففرّ مبتعداً مذعوراً منادياً إياي أولاً ثم صاحبي: أبوك يا خالد ينتظر، وكذلك أبوك يا أحمد. بعد ذلك تردد صدى صوته من بعيد، من ذيل الطريق المعوجة كأفعى هرمة مسترخية تنتظر الموت: لن يتركاكما تعودان أبداً.. أبداً.

انتهت.

الثلاثاء 11\8\2015

المسيح يدخن كثيراً

تفصل زقاقنا من نهايته عن جدار المدرسة الابتدائية القديمة ساحة لم أرها فارغة كل عمري الذي وصل قبل أيام الى الخمسين، فهناك إضافة للتواجد السرمدي للنفايات المختلفة، حافلة بيت سوادي الجاثمة منذ...لا أدري كم من الزمن. كنت مقتنعاً وأنا في الابتدائية أن لا وجود لشيء اسمه ساحة إنما هو مكان طبيعي لها، وقد سمحت صداقة ربطتني بولدي سوادي أيام الشباب أن يخبراني حكايات مثيرة عنها حيث عملا عليها مع أبيهما قبل أن يضطرها تردّيها في العمر إلى التوقف الأبدي هناك.

تحدّثا عنها حتى توهمت أنها كائن حي مرتبط بسوادي ارتباطاً أقوى من ارتباطه بعائلته أو عشيرته والحقيقة هي أنني بكثير من الأسف نسيت تلك الحكايات و لم تعد ذاكرتي المتعبة تسعفني إلاّ بشتات لا يصلح لشيء، لكني لم أنسَ شعور الالفة الذي كان يغمرني وأنا بين جدرانها، شعور لم تمنحني إياه جدران بيتنا مثلاً، اللون الأخضر الباهت والخط الأصفر العريض الحائل الى البياض وعتبة بابها المشرع

دائماً بسلماته الحديدية الثلاث لها رحابة أكبر من عتبة بيتنا ذاته وأريحية وقدرة لا نفاد لها على تحمل قفزاتي المستهترة، أول شيء كنت أفعله بعد خروجي من المدرسة هو الدخول من الباب الأول ثم اختراق المجاز الوسطي الفاصل بين صفي الكراسي التي وإن لم يبق منها إلاّ هيكلها الحديدي ونتف من تغليفها الجلدي الأحمر الملتصق بقطع اسفنجية كثيفة القوام صفراء مسودة ما تلبث أن تتفتت عند تحريكها، الاّ أنها صمدت بوجه السنين ومازالت قادرة على ذلك لو تُركت لحالها متمسكة بالأضلاع الحديدية للكراسي.

تتزود رئتاي الصغيرتان بعبق الحافلة المميز والذي هو خليط من رائحة وقود رديء وزيت عتيق تشّبع المكان بها سنين طويلة يضاف إليها في الشتاء الإحساس برطوبة تطغى على كل شيء يمتزج برائحة صدأ واضحة في الأيام الممطرة، ينقطع هذا كله مباشرة بعد الخروج منها مع أول نَفَس أعبّه لأنه مختلف تماماً فمحيطها الذي يمتليء بالنفايات تفوح منه رائحة عفونة دائمة وروائح أخرى مختلفة لبقايا أطعمة أو فاكهة عطنة ومرات عديدة تختلط معها رائحة مزكمة لجيف قطط أو جرذان ميتة، هذا الحد الفاصل جعل الحافلة تحتفظ برائحتها كخصوصية غير مكررة لذلك فإني لا أتذكر رائحة تشبهها أبداً، إنه جو محبب وأليف بالنسبة إلينا يبعث على نشوة وفرح غامر أسعدنا

جميعاً، أنا وصديقي الآخر باسم الأعور كنا نشعر بالامتنان للحظ الذي قرّبنا من ولدي سوادي كصديقين لأن هذا سمح لنا بالدخول إليها متى شئنا، فغيرنا يتعرض لأن يغلق الباب بوجهه بدعوى : إن أمنا لا تقبل.

ذات ظهيرة حارة كنت أجلس مع صديقي الأعور ذاته على الأرض يلتصق ظهرانا بحائط أحد بيوت الجيران، الزقاق خالٍ من أي ملمح للحياة كأننا في مقبرة خالية من زوار، رأينا أحمد "أبو الدكان" يغلق باب دكانه على عجل ويتجه صوب الساحة التفت عدّة مرات كأنه يتأكد من عدم وجود متابع، ربما لم يرنا أو أنه أهمل وجودنا استخفافاً لصغر سننا لا سبيل لمعرفة ذلك الآن على أية حال، ونحن بدورنا لم نعر تصرفه ذاك انتباهاً كبيراً أول الأمر لكنه حين فتح باب حافلة سوادي داهمنا شيء من الاستغراب لأننا شعرنا أن هناك أمراً مريباً مجهولاً وعلى عاتقنا تقع مهمة اكتشافه فنهضنا فوراً بهمة الأطفال لانجاز المهمة، كان علينا الدخول إليها بالتأكيد لكن أحمد معروف بمعاملته القاسية للصغار فاحترنا في أمرنا وأخيراً قررنا التخفي ومراقبة الباب، بعد مدّة من الزمن خرج هو باتجاه دكانه دون أن يلتفت، ومع عدم قناعتنا بأن الأمر انتهى بهذه البساطة إلاّ أننا تركنا المكان بعده مباشرة وقررنا تدبيراً ماكراً وهو الدخول إلى الحافلة قبله

في اليوم التالي وليكن ما يكون ولا أتذكر الآن ما الذي أوحى إلينا أنه سيكرر ذلك غداً.

كنا نعرف بوجود مكان يخفينا فالكراسي الأخيرة كانت عبارة عن مصفوفة تخفي وراءها مكاناً كافياً. مكثنا هناك نتصبُّب عرقاً مدّة أطول مما توقعنا حتى أننا فكرنا أكثر من مرّة بالخروج لكن الخشية من مصادفة أحمد دعتنا للتصبّر وصبْرنا ذاك قاد لنا مفاجأة حيّرتنا إذ لم يكن الصاعد أحمد بل سعدية الحلوة بنت أم ماجد وهي في ريعان الصبا لها قامة مديدة ووجه أبيض مدور ساحرة في كل شيء مشيتها، صوتها والتفاتتها لكن ما لا ينسى فيها تلك الابتسامة العذبة التي تجود بها حيثما التفتت. حين توسطتْ مجاز السيارة وضعت سلة القمامة الفارغة ــــ وهي حجتها في المجيء ــــ فوق أحد الكراسي، كنا نتلصص من ثقبين صغيرين، أجالت النظر بسرعة ولم تنتبه لنا مستبعدة وجود أحد، ولما اطمأنت تماماً صارت تتصرف كأنها تؤدي عملاً حفظته جيداً، أنزلت عباءتها من رأسها وصففتها بعناية واختارت مكاناً خالياً من الغبار الراكد في الأنحاء ثم سحبت ثوبها الضاغط بشدة على جسدها اللين من جانبيه إلى الأسفل، رفعت يديها لتصفف شعرها أو لتطمئن لتصفيفه فظهر لبّ إبطها ناصع البياض ولما أنزلت يدها اهتز قليلاً زندها المتكور من أعلاه ثم سكن ليعطي تكويناً مذهلاً

حتى بالنسبة لعقل طفل. وقفت دقائق قلقة ثم كانت الدهشة الكبرى لنا حين دخل أحمد لم تكن تلك الدهشة لوجوده فهذا متوقع ولكن للطريقة التي تصرفت بها هي فقد كنا ننتظر أن ترتبك أو تسرع للعباءة كما تفعل النساء عادة عند حضور مباغت لرجل، تصورات عقول صغيرة لم تشوهها خبرة الحياة بعد، أسرع هو لاحتضانها بل لالتقاطها التقاطاً لم تمانع هي ومنحته جسدها برخاوة كمائع يُصبّ في قالب عند ذلك فقط أدركنا أنهما متفقان.

لم أشعر برأسي وهو يرتفع أعلى هيكل الكراسي الذي يخفينا مأخوذاً بالمشهد النادر وأشدّ ما أسرني هو تعلقه بصدرها فقد أخذ يفرك أحد نهديها بسرعة وقوة فيما تمسكت شفتاه بالآخر ولم يتزعزع عن وضعه ذاك رغم تألمها وتحذيراتها الخافتة كأنما كانت تستحثه على الاستمرار والتمادي. المهم فإنه وبحركة سريعة لالتقاط أنفاسه رآني فذعر، التفتت هي فسمّرت بصرها بي لحظات دهشة ثم أخفت صدرها العاري بسرعة وتناولت عباءتها وهي تلطم خدّها ناسية تماماً سلة القمامة في مكانها لتمرّ مسرعة بالقرب منا. بعد اختفائها اتجه أحمد نحونا غاضباً أشدّ الغضب كان الوقوف أو الهرب من أحد البابين سيمكنه من الإمساك بنا فتذكرنا أننا نستند إلى باب خلفية ثالثة تفتح للأعلى ولكن بصعوبة، فررنا بينما لاحقتنا تهديدات أحمد بأنه سيخبر

أهليْنا عن فعلتنا السيئة في الحافلة! ومضت الأيام والسنوات دون أن ينفذ شيئاً من تلك التهديدات واكتفى بالصرّ على أسنانه كلما رآنا حتى إذا كبرنا صرنا نبتسم جميعاً لبعضنا بدل ذلك.

بعد مشهد الظهيرة ذاك لم يفارقني طيف سعدية أبداً وظلت الانبعاجات الفاتحة اللون التي خلفتها أصابع أحمد في زندها تتراءى لي مرات لا عدّ لها واستعادة الزند لهيئته بعد كل ضغطة سرعة وإغواءً لا يضاهيها شيء، مرّة توقفت شارداً أمام العجين بينما تدوّره أصابع أمي متفكراً في محاكاة لمنظر الزند ذاك لكن بلادة العجين واحتفاظه بالأثر ولّدت حسرة وقناعة راسخة باستحالة تعويض الذي مضى أو حتى محاكاته. في مرّة أخرى وجدت أخي يلعب ببالون ملأه ماء فتماثلت حركة البالون مع ما تحتفظ به ذاكرتي من إثارة فتحسسته وغرست به أصابعي فارتعشت ذهولاً لتقارب المشهدين لكني الآن لا أستطيع وصف سخافة الموقف حين باغتتني أمي وأنا افرك بالوناً أبيض مملوءً بالماء اشتريته من دكان بعيد وليس من دكان أحمد لأني خشيت أنه سيكتشف لعبتي حتماً.

تخيّلت سعدية بأوضاع لا حصر لها كنت أنا طرفها الآخر ولكثرة خيالاتي اقتنعت بحتمية لقاء قريب سيكون بيننا وعلى هذا كان لابد لي من خطوة بهذا الاتجاه فأخذت أتجرأ حين تصادفني بحركات إغواء

أتقنها بخيالي وأنفذها تنفيذاً سيئاً نتيجته دائماً: لو لم أفعل لكان أفضل. غمزت لها مرة واختفيت من الزقاق مدة ولما التقينا لم يبدُ أنها تأثرت بذلك إيجاباً أو سلباً فرجحت أنها لم تلحظ فعلتي وفي العيد تجمعت لدي بعض النقود فخطرت في بالي فكرة نفذتها فور التقائي بها إذ قلت لها: سأعطيك ديناراً. كنت أرتجف وتهدّج صوتي وبدا لي غريباً كأنه لشخص آخر ثم اختفى تماماً وضاع كل كلام ممكن، كانت هذه أول مرّة أخاطبها مباشرة، لم تجبني بل انتظرتْ قليلاً ربما توقعتْ توضيحاً ما ثم رسمت على وجهها الأخّاذ إمارات دهشة جريئة بعدها ضحكت ضحكة مائعة ساخرة وابتعدت وهي تلفّ جسدها بالعباءة كأنها تتفادى ريحاً باردة.

أمران حدثا بعد ذلك استطاعا تخفيف جذوة خيالاتي بسعدية وهي بالحافلة بثوبها الأصفر الموشى بدوائر حمر والذي يكشف عن مساحة من الصدر الناتيء والزند الهائل، الأول زفافها وقد حرصت والمرارة بحلقي على اقتناص مشهد صعودها سيارة العرس صحبة العريس الذي لم أكن متحمساً لرؤيته لأني كنت قد تابعته وهو يتردد أيام الخطوبة، كأني أردت تصديق ما يحدث وأنها ستغيب عن الزقاق. والأمر الثاني هو انشغالي بولع جديد ففي أحد الأيام أخبرني صديقي باسم الأعور همساً أنه وولدي سوادي اتفقوا مع الولد سوسو على

اللقاء في الحافلة بعد المدرسة، ولدا سوادي يرقبان باهتمام شديد ردة فعلي غير بعيدين لأنهما يقدران قربي من المجموعة وأني سأعرف الحدث لذلك فإن الوسيلة الفضلى لإسكاتي هو إشراكي منذ البداية، ولما نظرت ناحيتهما هزّا رأسيهما بحماس دلالة الموافقة، فعلاً بعد المدرسة التقينا جميعاً في الهيكل ... لا أظن أن المواصلة في هذا أمر حسن فمثل هذه الأشياء يجب أن تطوى لكن المهم ذكره هو أن ولعي الصبياني ذاك وبعد أن أصبحتُ المفضل لدى سوسو لضخامة جسدي قد ساعدني على التخلص من خيالات سعدية المؤذية.

لم يستمر زواجها إلاّ أقل من عام حيث عادت مخاصمة زوجها الذي ما لبث أن طلقها، بدت أقصر مما كانت عليه وأكثر امتلاءً وجمالاً وإثارة وقد أحرقني ما تردد إلى مسامعي من همس أنها أصبحت أسهل منالاً. ثم توارت عن الأنظار لعدة أشهر دارت فيها أحاديث نساء الزقاق بتكهنات كثيرة مختلفة، حتى جاء اليوم الذي سمعتُ فيه أمي تردد "العياذ بالله" وتؤكد بغضب: إنه ابن سعدية ولا شك، وجدوه في حافلة سوادي، منْ غيرها يفعل فعلة كهذه؟! حين خرجت إلى الزقاق غمز لي بعضهم قائلين: إن أحمد "أبو الدكان" هو أول من سمع الصراخ الآتي من اللفيفة في هيكل الحافلة!.

أخذه رجال الزقاق إلى المسجد لكن في الطريق أوقفتهم أم فادية المسيحية متوسلة إياهم أن يعطوها إياه لرعايته طلباً للمثوبة، بعد سنتين أو أقل وضحت معالم ذلك الطفل فلم يكن إلاّ " أكرم المخبل " وقد اضطر وهو في العشرين إلى ترك بيت أم فادية حيث ماتت بنتاها " المنغوليتان " فادية ونادية تباعاً ثم لحقتهما هي بعد مدّة وجيزة. بنى له الشباب، وهم الجيل الذي تبع جيلنا، غرفة من صفائح معدنية وألواح من الخشب في الطرف القصي من الساحة ثم صاروا يقضون معظم سهراتهم عنده يغنون ويطبلون بينما يرقص هو ضاحكاً منتشياً وتعلم منهم التدخين فأصبح مدمناً شرهاً لا تفارق السيكارة فمه مضيفاً من عنده شيئاً مميزاً بأن يضع السيكارة بطرف خرطوم ماء طوله نصف متر تقريباً ويسحب الدخان من الطرف الآخر بصعوبة نعم ولكن بنشوة لا يعرف كنهها إلاّ هو.

أكرم قصير القامة ومع هذا فهو محدودب الظهر ربما بسبب نحافته، داكن البشرة أصلع إلى النصف من رأسه أبكم لا يصدر منه صوت مفهوم مجرد أنينٍ إذا انزعج وصيحات مبتورة أقرب إلى الزعيق يعبر بها عن سروره ورضاه. أغلب الأحيان يصعب على الكثيرين التقرب منه أو حتى النظر إليه وأنا واحد منهم، لرائحته النتنة ولأن مخاطه كثيراً ما يختلط بلعابه فوق شعر شاربه ولحيته الكثتين، شخص واحد دأب على

تنظيفه وحلاقته إلى النهاية هو أحمد "أبو الدكان" ذاته. عامله أهل الزقاق كمسيحي فكانت الهدايا تأتيه أيام أعياد المسيح بالذات وتحيى له ليلة رأس السنة في أحد البيوت فيرقص ويضحك حتى يقعده التعب دون أن يعي شيئاً مما حوله، ربما كان في ذلك اكراماً لذكرى مربيته السيدة الحنونة التي انطفأت عائلتها إلاّ من رمز ر بها وهو أكرم. بالنسبة لي كان وجود أكرم مجرد عبث فائض عن حاجة الزقاق والحي والدنيا كلها، هو علامة وسخة على رأس الزقاق تفوح منه باستمرار الرائحة المزعجة وهو إلى كل ذلك عنيد كبغل هرم، لم يقنعه أحد بخلع بعض الملابس المختلفة السمك التي يكدسها على جسده حتى في تموز، منْ يستطيع ارتداء جورابين صوفيين أو ثلاثة في الصيف بشكل دائم؟! كنت أعبر عن برمي بوجوده بالأسئلة المتكررة عن أصل ذلك الوجود مع التركيز على بعض مفاصل حياته المكشوفة للجميع مثل اهتمام أحمد "أبو الدكان" به ثم أنهي بسؤال ساخر عما ينتظره العالم من مخلوقات مثل أكرم، كانت هذه الأسئلة وأشباهها هي التي قضت على زواجي من سعدية، فقد كانت تتجاهلني بإصرار مرّة بعد مرّة حتى بلغ النزق بي يوماً أنني واجهتها بالقصة التي سمعتها من المرحومة أمي عن علاقتها بأكرم فقررت تركي فوراً وإلى الأبد.

لا أظن أني ذكرت زواجي بسعدية! نعم تزوجتها سبعة أشهر تقريباً وهي تجربتي الوحيدة بشيء اسمه الزواج أما كيف حدث ذلك فهذه حكاية أخرى ربما سأحكيها يوماً ما، وكل ما أستطيع ذكره الآن هو أن الخيبة لازمت تلك السبعة أشهر ومنذ الليلة الأولى ليلة مواجهة أحلامي وخيالاتي الأسطورية مقطوعة الصلة بالجسد الذي حين وصلني أو ــ أنا من وصل إليه ــ كان متداعياً. بين الحين والآخر تظهر حكاية ما عن هيكل الحافلة بعض هذه الحكايات يبعث على الضحك، مرّة نقل بعض الشباب الذين يسهرون عند أكرم أن محرك السيارة قد دار وأنهم سمعوه بوضوح لا لبس فيه في منتصف الليل لكنهم لم يقتربوا لشدة خوفهم، كما أن مصابيحها أضاءت المكان وكشفت عن رجل يدور متفحصاً الهيكل ولا شك أنه هو من شغلها وحين عرضوا أوصافه صاحت أرملة سوادي العجوز العمياء ملتاعة: إنه سوادي .. سوادي لا أخطيء أوصافه أبداً. وبعد سنتين تقريباً تكررت الحادثة ذاتها لكن الأرملة كانت قد ماتت هذه المرة. أي خيال يمكن أن يصوغ رؤيا كهذه؟ وأي عقل يمكن أن يصدّق؟! حين أمرّ بالهيكل وأنظر إليه وقد أكله الصدأ وصار أوطأ مما كان عليه بفعل ارتفاع البيوت والشارع وكثرة الأزبال حوله فإني لا أستطيع كتمان ضحكة مما يشاع حول اشتغال محركه أو اضاءة مصابيحه إذا افترضنا

أن عودة سوادي أو روحه قد تكفلت بها الأشباح بجدارة. في وقت ما اضطرت عائلة هاربة من إحدى مدن الحرب إلى القبول بالهيكل داراً للسكن ولم يكن في هذا حكاية تحكى ومع هذا دارت حول قبول عائلة سوادي بذلك حكايات شتى فقد قيل أن الأم التي لم تزل شابة كانت سخية مع الولد الأكبر فرتب بقاءهم قريبين، ساعد في ذلك العلاقة الوطيدة التي قامت بين العائلتين فلم يبق أحد من أهل الزقاق إلاّ ورأى الأم متلفعة بعباءتها تزور بيت سوادي زيارات متكررة لم تعرف انتظاماً في الوقت أو المدّة وبعض الحكايات قالت أن السخاء جاء من البنت اليافعة ثم تطيّرت أخرى إلى أن المرأتين قد تعاونتا في إلجام الولدين معاً إمّا باتفاق أو بغيره. آه من الحكايات التي لا تترك حجراً إلاّ ونبشت حوله أو تحته، أحداث حقيقية وأخرى مفترضة كثيرة لا يمكن سردها جميعاً توسطها الهيكل القابع على رأس زقاقنا لكني لن أغفل بحال من الأحوال ما حدث صباح ذلك اليوم الشتوي العاصف، ريح باردة تصنع موجات صغيرة متتابعة على سطح ماء المطر المنسكب طيلة الليلة الماضية محولاً الزقاق إلى جدول ضفتاه البيوت المتقابلة، كان من المستحيل الخروج من تلك البيوت والوصول إلى أي مكان دون الخوض في ذلك الجدول، حين أيقنت من ذلك قررت البقاء في البيت بل في الفراش تحديداً لكني بعد دقائق خرجت

لأن صياح رجال وصلني مختلطاً بولولة نساء وتهريج أطفال مددت رأسي من الباب فوجدت شاباً قريباً يخوض بالماء حتى ركبتيه سألته : ماذا هناك في رأس الزقاق؟

- وجدوا أكرم مذبوحاً في حافلة بيت سوادي.

- أكرم؟ مذبوح؟! أي أكرم تعني؟

- " أكرم المخبل "

- لكنه مات قبل أشهر بانفجار مستشفى اليرموك ألا تذكرون؟!

- لا .. كانت تلك كذبة وهاهو الآن على أرضية الحافلة والناس ينتظرون سعدية.

- ولماذا سعدية؟

- ربما أنت تعلم السبب أفضل منّي.

لم أكن من الذين يهرعون لمكان الحدث في مثل هذه الحالات، عادة ما ألوذ بأي عذر للابتعاد لكني وجدت نفسي هذه المرّة مدفوعاً نحو المكان دون أن أعرف ما الذي سأفعله هناك، دسست قدمي بجزمة بلاستيكية طويلة الرقبة وسرت نحو المعمعة، تجمع الناس حول الباب الخلفي للحافلة دون أن يصعد أي منهم، سبقني رجل بهمة غائصاً باللجة ثم عاد إلى الوراء مشمئزاً إلى حدّ لفه دوار وتقيأ غير بعيد فوق أكياس الأوساخ الطافية فزاد من توتر المشهد مؤكداً بألفاظ وأصوات

بشاعة المنظر الذي لم أجرؤ على رؤيته بعد، ندمت على تسرعي بالمجيء وفكرت بالتراجع لكني وجدت ذلك مخجلاً في تلك اللحظة نظر الناس إلى جهة واحدة ففعلت مثلهم، كانت سعدية تخوض بالماء مبتلة بشكل كامل تشدّ العباءة من خصرها، بهتنا جميعاً لمنظرها وهي تواجه رشق المطر المتسارع على وجهها المصفر فيما واصلت لطمه بيديها، كان واضحاً بأنها سيدة الموقف أو أنها المعنية الأولى بالفجيعة كأن الجميع توافقوا على إثبات علاقتها بأكرم، أو كأنها قد أقرّت بذلك أخيراً. عند وصولها انفرج الناس عن باب الحافلة، تلك الانفراجة سمحت لي برؤية المشهد؛ جثة منكفئة على البطن، لم أر الوجه أولاً، يحتضن درجات السلم الثلاث فيما أمسكت يداه من العضدين بالوتد الحديدي الذي كان يستنجد به الراكبون وهم يصعدون السلم، رجل الجثة اليسرى تنثني تحت البطن تقريباً بوضع مشدود فيما تغط اليمنى بالماء حتى الركبة وقد انكشف جزء من الظهر لارتفاع الملابس للأعلى مما يعني أنه قُتِل في الحافلة وسُحِب وتُرِك حيث هو أو أنه استقر هكذا دون قصد في نزاعه الأخير، كان اهتماماً لحوحاً أن أبحث عن منظر الرأس لكنه اهتمام حذر كذلك، جاء هذا الاهتمام من أن فكرة الذبح بقيت عالقة بذهني منذ أن ذكرها الشاب عند باب بيتي، جزء مني لا يريد تضييع فرصة أن أرى

ذلك حقيقياً مجسداً، وجزء آخر حذر يخاف ذلك المنظر، قد لا أتحمله، في النهاية كنت مدفوعاً للبحث عن رأس أكرم، كانت كتفاه بارزتين بوضوح للأعلى فظننت أن لا وجود له مرجحاً أنه مقطوع ولابد أن يكون في مكان ما ربما قريباً مني فتلّفت عبثاً يميناً وشمالاً لأطمئن، أعدت بصري نحو الجثة فلمحت هامته الواسعة من أعلاها. صاحت سعدية: يا ويلي لماذا تتركوه هكذا؟ ألا ترون أن الحديد البارد يكسّر أضلاعه النحيفة. فانتبهنا إلى أن صدره يلتصق بالحافة الحديدية القاسية لإحدى درجات السلم، همهم الرجال عزماً وتوجهوا لحمله كأنهم وجدوا بعد حيرة ما كان يجب عليهم فعله، قلبوه على ظهره وهم صامتون كانت سعدية تسند رأسه براحتيها كأنها تخشى أن يقع منفصلاً عن جسده تمعّنت بوجهه شاعراً أن لحظة مواجهة ما كنت أخشاه قد حانت للتو، لكن المنظر كان أقل بشاعة مما انتظرت، هناك خط مستعرض يتوسط الرقبة؛ إنه حزّ سريع ومتقن ينحدر عنه لون أحمر حائل إلى السواد تتسع مساحته عند الصدر مما يعني أنه ذبح منذ ساعات، يزمّ شفتيه بقوة ويضغط بمحجريه على العينين في تعبير يلّخص آخر لحظات الألم الذي واجهه في النهاية.

خالطني شعور أن هذا أكرم آخر، أسمن أو أنه متورم، اصفرار بشرته الفاقع يمكن تفسيره لخلو جسده من الدم لساعات وربما هذه هي هيأة

الموت التي لم أرها من قبل، المهم أنه لم يكن مألوفاً لديّ ذلك الوجه. بعد أن أبعدوه بضعة أمتار عن الحافلة توقفوا لا يدرون ما هي الخطوة التالية صاحت سعدية: هاتوا تلك الأعواد. مشيرة إلى أعواد غرفته القديمة. جرّ قسم من الواقفين أرجلهم جرّاً في الماء حذرين مما قد يكون تحته، لكنهم نفذوا الأمر بالنهاية وجاءوا بالاعواد وصنعوا منها محملاً مرتفعاً عن الماء ليطرحوا الجثة عليه وغطتها ببطانية ثم ركّزت بصرها باتجاه هيكل الحافلة كأنها تريد خرقه أو أنها تتفحص مكاناً قصياً لا يمكن لأحد غيرها الوصول إليه، كنا جميعاً ننظر إلى وجهها دون معرفة ما كانت تعبّر عنه قسماته، بالنسبة لي كنت أشعر بأني أشبه تماماً الفلاح الساذج في حكاية سمعتها منذ زمان بعيد الذي عشق مشعوذة عظيمة، بينما كانت تتصرف هي كسيّد أصيل أو قائد مجرّب ذُبح ابنه بين يديه تواً. قالت بصوت واهن وهي تشير إلى الهيكل: سنبعد هذه الشريرة من حياتنا.

انتهت

بغداد في 11/ 1 / 2017

هكذا ستأكلنا الذئبة

تحقق حلمي، وها أنا أمتلك "كيا" أخيراً. أتذكر أني قد رددت هذه العبارة كثيراً مع نفسي مغتبطاً قبل عدّة سنوات، إذ لم أدرك حينها أن ذلك الحلم ــ الحقيقة يمكن أن يسبب الآلام التي مررت بها. لا أعني الزحام ومشاكل الركاب وما شابه ذلك، بل أعني مشاعر الألم التي تخلفها حكايات يتبادلها الركاب باستمرار ولامناص لي من سماعها. حتى أني بعد ما حدث اليوم قررت مغادرة هذه المهنة نهائياً، فلو لم أكن "صاحب كيا" لما استوقفتني مجموعة من الشباب طالبين نقلهم ذهاباً وإياباً إلى الملعب، لم نتفق أولاً على مبلغ الأجرة، لكنهم أحرجوني بتوسلاتهم المرحة ودماثتهم واستنجادهم "بشهامتي".... كيف لا والفريق المحلي سيلعب اليوم مباراة مصيرية ... فقبلت ولم أعترض كذلك على تكدّسهم بأعداد أكبر مما تستوعب المقاعد الخلفية. بعد تجاوزنا شارعين، عرفت لماذا تركوا المقعد الذي بجانبي فارغاً، وجدناه بالانتظار، حامل الراية، ستيني قصير ربعة، له كرش واضح، أشيب كثيف الشعر ما ميّزه عن كل الواقفين في الشارع، أنه

يرتدي ملابس رياضية كاملة وبيمينه راية، بالتأكيد هي شعار الفريق. ارتفع التصفيق والتهليل وتعليقات الشباب التي ردّ عليها سريعاً وبصوت أعلى مصحوباً بضحكات رنانة. حيّاني بينما كان يحصر عود الراية عرضياً بين ركبتيه تاركاً جزء القماش منها يرفرف خارج نافذة السيارة. ربع ساعة، وصلنا بعدها الباحة التي تفصل موقف السيارات عن باب الملعب الرئيسة، كانت هذه المدة لصاحب الراية حصراً. همس لي لحظة صعوده:

ـــ أنا رئيس رابطة مشجعي الفريق. بدا أن تأثيرها فيَّ لم يرْضِه، فازداد تركيزه عليّ بصبر تثقيفي:

ـــ مثابرة، دعم في كل الظروف، الزهد بأشياء يحرص عليها الآخرون ... وهكذا لأجيال، وإلا كيف تكون "مُلهِماً"؟.

تزحزح نحوي قليلاً وقال بنبرة جادة لكن خافتة:

ـــ المباراة صعبة ومصيرية لكننا سنبذل وسعنا، ما ينقصنا لاعب سريع ،هداف، مثل البرغوث الم تسمع به؟ هززت رأسي نفياً وقد أحسست أن الشباب يحاولون استدراجه لحديث آخر لكنه عاد سريعاً:

ـــ كانت له صورة معلقة في لوحة الشرف بمقر النادي ، لكنهم أزالوها قبل فترة قصيرة، يبدو أن اللوحة لم تعد تسع كل الصور.

لم أستطع مجاراته فانا لا أفقه شيئاً من هذا فسكتُ، حاول الشباب ثانية تغيير مسار الحديث لكنها كانت محاولة مكشوفة ورديئة، فما أن توقف قليلا حتى عاد للحديث بإصرار أكبر وتفاعل أشد:

ــ كانوا يسمونه"البرغوث" ليس لصغر حجمه بل لأنه كان مزعجاً لدفاعات الخصوم، ولو لم يكن الأمر كذلك لرفضت تلك التسمية بقوة، فهو ابني على أية حال.

هدّج صوته قليلاً فشعرت أن جو المرح الذي كان سائداً تغير وبدأ يخيّم الصمت عليه.

ــ نعم أنا أبوه، وكان من حقي الاعتراض، مثلما هو حقي الآن أن أعتقد بحتمية عودته، رغم التشكيك الذي يصلني من هنا أو هناك ، مرّة بسبب طول مدّة غيابه وأخرى بالحكاية إياها .. طبعاً لن يعود ليلعب ثانية فقد تجاوز الأربعين الآن، لكن يمكن أن يكون رئيساً للرابطة، فأنا لن أعيش للأبد. وجدت نفسي مدفوعاً أن أساله عن كيفية اختفائه كل هذه المدة. ضحك ساخراً وقد استولى الحديث عليه:

ــ تصوّر، أن زميلاً له لم يخجل من نفسه وهو يخبرنا بأن الذئاب قد أكلته، كان عليه أن يشعر بالعار، جندي وسط زملائه تأكله

الذئاب! مجرّد هذر، مزحة سخيفة، والأدهى أن أمه صدّقت الحكاية، بل وتلقي اللائمة على نفسها، عقل أمرأة! لا تستطيع إلا أن تشفق عليها وهي تدّعي أن نبوءات الوالدين لأبنائهم حقائق حتى وان كانت للمزاح، الله يجعل المزاح حقيقة. أذكّرها: يا امرأة، نحن لم نكن نمزح حتى، كنا نريده أن يهدأ قليلا ً أو لينام وهو ابن الثانية أو الثالثة، وليس من وسيلة أسرع من قولك له "هكذا ستأكلك الذئبة " فيتروي صامتاً أو نائماً لم نُعِر أهمية لذلك حينها ألا تتذكرين؟!.

حينها شعرتُ أن قلبي سيخرج من حلقي، أيمكن أن يكون هذا الرجل الأشيب والد "السنفور" صاحب النبوءة؟! في محلته يسمونه البرغوث ونحن في الجيش كنا نسميه " السنفور"! في هذه اللحظة بالذات وصلنا، وما إن وطأت قدماه الأرض حتى تبدّلت أحواله هازا ً رايته فتدافعت نحوه مجموعات من الشباب كانت بالانتظار، أهازيج ممزوجة بأنغام بوق وضربات طبل .أما أنا فقد نزلت مثقلاً بحكايتي، معزولا ً عن ما حولي، كأني في كبسولة مرئية ليس معي فيها إلاّ الرجل الأشيب وابنه الذي كان زميلي، هذا هو كل وعيي في تلك اللحظة ، لكنه تلاشى في لحظة خاطفة تالية، خارجة عن السياق، صوت مهول اهتزت له الأرض تحتي، اندفاع ريح عاتية حملت معها بسرعة متناهية حرارة وغبار ثم روائح مختلفة غريبة. لا أعرف الآن إن

كانت هذه الأشياء التصقت بذاكرتي قبل مغادرة وعيي؟ أم أنها خاتلتني وتسللت ببطء إليها بينما أنا ممدّد وخدي مطبوع على الأرض الصلبة؟ وهي الحال التي وجدت نفسي فيها بعد عودة الوعي إليّ.

تناهى إلى يقيني أن انفجاراً قريبا ًهو ما تسبب بكل هذا، حاولت الحركة وبعد جهد نهضت لكني كنت خائر القوى، ترنحت فجثوت على ركبتيّ أنوء برأسي الثقيل جدا ً، بدأ سمعي يميّز الأصوات، صراخ وأنين، وقع أقدام راكضة، نداءات بأسماء متعددة، أردت معرفة المزيد فدرت بوجهي، الدخان يملأ الحيّز، خيالات لأشخاص يتحركون باتجاهات مختلفة. عادت إليّ اللحظة التي سبقت الانفجار، لحظة الوعي فنهضت ثانيا ً، خشيت انفجاراً آخر فقررت أن نجاتي ستكون داخل الملعب، تذكرت شيئاً مهماً للغاية، وقفت متفحصاً جسدي باحثاً عن إصابة محتملة، تلمّست وجهي بأصابع مرتعشة، مجرد خدوش، اطمأننت فواصلت دون تأخير. بضع خطوات وسقطت، هذه المرة بسبب تعثري بعامود يعترض الطريق، أمسكته لأنحيه جانبا ً فإذا هو عامود الراية التي ما زالت سليمة هي الأخرى شعرت برغبة، ربما غير مبررة ، لحملها معي إلى الملعب ففعلت، شرطي مرتبك عند الباب يحث الداخلين على الإسراع .

بعد العتبة، أدركت أني قد تخطيت للتو هولاً ، بإمكاني الجلوس في الأمام لكني فضلت أن أتوسط الآخرين، فجررت قدميّ المنهكتين صعوداً بضع درجات متجاوزاً صفوف الكراسي، بعضهم تجاوزني مرتفعاً وآخرون استقروا أمامي فكانت رؤوسهم تحت ناظريّ باستمرار، لا أدري لماذا أشعرني مكاني هذا بالراحة، بقيت الراية تشغل مقعداً إلى جانبي حيث لم يجرؤ أحد على تحريكها، خفتت سريعاً أصوات الإسعاف وكذلك الاطلاقات المختلفة، وأطبق سكون موحش على الملعب إلاّ من بعض همهمات مستنكرة أو متأسفة أو لائمة. هل ستقام المباراة؟ تساؤل خجول دار بين المدرجات، بعد لحظات تحول إلى مطالبات جريئة بإقامتها، ثم هياج عارم نبهني إلى أن الفريقين قد نزلا إلى الساحة فعلاً وهاهي الجماهير تبتهج، أما أنا فقد عاودني إحساس العزلة، والسؤال المخيف: أهذا والد "السنفور" ذاته؟! أية مصادفات؟! نهايات ، مصائر، أهذا ما ندعوه الحياة ؟! عشرون جندياً تقريباً ، نمتطي ظهر شاحنة "الإيفا" الصلب الذي يستجيب اهتزازاً وقرقعة معدنية لكل ما يعترض سبيل إطاراتها في طريق صحراوية وعرة، كنت في الثالثة والعشرين حينها، لم يكن يوماً للنسيان. يبدو أن الضيوف سجلوا هدفاً في مرمى فريقنا المحلي، خفتت الأصوات وفترت الحماسة، لم يعد الجلوس ممكناً بانتظار رد الفريق

المحلي، فأصبح معظم الجمهور واقفاً، مما منع عني الرؤية، لم يشغلني الأمر كثيراً لأني أصبحت أسير ذكرى ذاك اليوم، حيث أصبنا فيه برعب مضاف لأننا أضعنا بقية "الرتل" العسكري المنسحب بغير انتظام من "المطلاع" إذ لم نعد نرى أية آلية أخرى.

قفز أحد المشجعين بانفعال فتداعى ساقطاً إلاّ أنه اتكأ في اللحظة الأخيرة على ركبتيّ ليتماسك ثانية، لم يعتذر بل توجه إليّ بوجه شاحب وشفتين ناشفتين قائلاً:

ــ إذا لم يفعل المدرب شيئاً فإن الربع ساعة المتبقية لن تكفي للتعديل. ذكرتني حالة الرجل هذه بزميلي في "الإيفا" التي توقفت أخيرا لنفاد الوقود، حيث وجهه المكفهر رعباً يقول بيأس:

ــ لا أظن أن الربع ساعة المتبقية من النهار ستكفينا للنجاة. بعدها نصحنا نائب الضابط المسؤول أن نقضي الحاجة بهذه الفسحة من الوقت لأنه لن يسمح لأحد بمغادرة حوض الشاحنة خوفاً من الذئاب حتى الصباح. الجندي الصغير سناً وحجماً الذي كنا نسمي"السنفور" حين سمع ذلك فزع وردد مستفسراً: الذئاب؟ وصار يرتعد ويبكي صارخاً: الذئبة..أنجدوني. حاولنا تهدئته لكنه تمادى في هياجه الهستيري، جلس في منتصف حوض الشاحنة ليقول: أمي كانت تقول لي دائماً منذ صغري" هكذا ستأكلك الذئبة". ثم أخذ يردد: هكذا

ستأكلني الذئبة... نزل أكثرنا بسرعة وارتباك لقضاء الحاجة. لم تكن لدينا ذخيرة تذكر، بنادقنا مجرد عصي ثقيلة، ثماني إطلقات في مسدس النائب ضابط فقط، ضحكنا بمرارة: ماذا لو جاء عشرون ذئباً في منطقة تشتهر بكثرتها حتى قيل في ذلك الكثير من الحكايات المرعبة؟ جندي ضخم نفد صبره فركل الولد الصغير على خاصرته شاتماً إيّاه والحظ الذي سيّر الأمور هكذا، سقط "السنفور" صارخاً بأعلى صوته: هكذا ستأكلني الذئبة.

غاب القمر سريعاً، ريح باردة، ليلة ظلماء مريبة، في منتصفها تقريباً حضرت الذئاب، سمعنا عويلها أولاً، ثم رأينا عيونها المضاءة تلصف بوقاحة واشتهاء، تنذر بمأساة وشيكة، متروية وواثقة، فاجأتنا إطلاقة النائب ضابط: الذئب الجريح أخطر منه جائعاً. هكذا برر اطلاقة عزيزة في الهواء، صمت الولد المرتعد قليلاً كما تراجعت الذئاب بضعة أمتار احتراماً وتوجساً للدوي المفزع في ذلك الليل المهيب، وتوقفت عن حركتها المستهترة لتشكل قوساً يطبق على حوض "الإيفا" استعداداً لعمل جاد، أمسك طرفي القوس ذئبان كبيران صامتان طول الوقت ولم يشاركا في عمليات الاقتراب من الشاحنة التي نفذها بقية الذئاب أما منفردة أو مجتمعة والتي كنا نقابلها بأصوات مرتفعة وقرقعة تحدثها حركتنا المرعوبة، لقد كان هذا كافياً لإقناع الذئاب بترك

المحاولة والتراجع إلى مراكزها، لكنها مرة بعد مرة فهمت أو تعودت الطريقة وبدا أنها قريباً لن تعر ذلك اهتماماً في اتجاهها إلينا، تداولنا ذلك على مسمع من "السنفور" الذي لم ينقطع عن ترديد العبارة ذاتها، بل ازدادت سرعته وارتفع صوته، كنا في شغل عنه، نتلفت في أرجاء السيارة باحثين عن وسيلة للدفاع في هجمة شرسة ربما ستكون الأخيرة، في الزاوية وجدنا تلك الوسيلة، بطانية مهملة ملوثة بالزيت، بالكاد أشعلتها قداحة وحيدة كانت تلفظ أنفاسها، اضطرمت النار بسرعة فرميناها تجاه الذئاب المنقضّة، أجبرتها الرمية الحارة المضيئة والمفاجأة وسط الليل البهيم على هدنة كنا بأمس الحاجة إليها، كشفتنا النار أثناء ارتفاعها في حوض "الإيفا" بشكل فاضح للحظات، انتبهت إلى أن "السنفور" قد غادر مكانه لأول مرة، وهاهو يقف منتصباً كخشبة، لم نهتم بأمره لأن شاغلنا كان: الخلاص.

جمهور يقف خائب الظن، هكذا يمكن وصفه في الملعب حين انتبهت، إنها اللحظات الأخيرة قبل نهاية المباراة، اليأس يخيم على الجميع، أحد المشجعين اختار كتعبير عن غضبه، القفز على مقعد يعترض طريقه نحو ممر الخروج، وضع يده اليسرى أعلى المقعد للإستناد ناقلاً جسده النحيل برشاقة إلى الجهة الأخرى فالتحقت يده بهدوء. بنفس الطريقة، وقد ظننا أنه يريد رؤية ما فعلناه بالبطانية

المشتعلة، اقترب "السنفور" من حاجز الشاحنة الحديدي صائحاً بأعلى صوته: هكذا ستأكلني الذئبة. لحظة لا يمكن احتسابها أو وصفها، انفلت جسده خارج الحاجز مردداً عبارته للمرة الأخيرة. ألجمتنا المفاجأة وصحنا جميعاً بهلع: ماذا تفعل أيها ..... مع وقع حذائه الثقيل على الأرض الخشنة، التفتت الذئاب نحوه مندهشة وبسرعة لم تعط فرصة التفكير بأي شيء انفرط قوسها المحكم وتقارب الذئبان الكبيران حتى تدافعا. بدأ كل شيء يختفي في الظلام، حيث كنا مشلولين وأخذ النباح والشخير المفزع والغبار المتلاشي كل وعْينا بعيداً. أطلق نائب الضابط الرصاص بالاتجاه ذاته حتى فرغ المسدس فرماه كذلك بقوة كمن تخلص أخيراً من عبء ثقيل مزعج، ثم أخذ يردد بصوت كسير وهو ينظر إلى بقايا رماد البطانية المحترقة تخمدها أول نسيمات الفجر الباردة: هكذا أكلته الذئبة ... المسكين.

كم شعرت نفسي مسكيناً وسط الجموع الخارجة بصمت من البوابة الكبيرة للملعب، كنت في آخرها تقريباً، أعاني خدراً وبعض آلام في أطرافي، لم أفطن متى التقطت راية فريقنا المحلي، لكنها يقيناً كانت تلتصق بخاصرتي.

انتهت.

أصفادي من ذهب

قضى أبي كل حياته مسمّراً بقاربه، حتى أن الكثيرين لا يتذكّرون له صورة إلاّ وذاك القارب فيها. أكثر تلك الصور شيوعاً ورسوخاً هي جلوسه وسط القارب المتهادي بين موجات النهر. الجلسة التي لا زالت واحدة من الغازه السرّية، فالرائي لا يستطيع الجزم مثلاَ إن كان مستقراً على قدميه أم على عجيزته الضامرة، والأغلب أن الاثنين معاً يحملان جسده النحيف فيما ينطبق الساق مع الفخذ من كلا رجليه، ليتشكل قوسان يحتويانه من الخاصرة حتى الصدر، ويبقى رأسه الدقيق متحرراً منكبّاً باستمرار على يديه اللتين تقومان إمّا بفك أو توصيل خيوط الشبكة حيث يكون معظمها في الماء. هذه الجلسة المعقدة هي الوحيدة التي تسمح له بالإطالة اليومية الدائبة التي كان مجبراً عليها، فهو لم يكن صياد سمك يمكن أن يكتفي برزق ساعة أو أكثر، ليس لأنه لا يستطيع أو تنقصه الخبرة والمهارة، أبداً بل لأنه لم يكن يريد ذلك، فعندما يعلق السمك بشبكته كان يرميه كما يرمي نفاية متأففاً مترعجاً، فهذه عنده مضيعة للوقت والجهد!. أبي كان يبغي شيئاً آخر،

أسرّني بذلك مرّة واحدة مؤكداً أن غيري لن يعرف شيئاً عن غايته ومنى روحه تلك، وأظن أني لمحت في وجهه الأسمر الناحل ومضة ندم سريعة على "هفوته" في التفريط بسرّه العتيد.

قارب أبي الذي قضى فيه كل حياته، كان طويلاً ورشيقاً ذا طرفين معقوفين إلى الداخل وحافتاه الجانبيتان واطئتان من الوسط إلى حدّ يُتَخيّل معه أنه سيغرف شيئاً من الماء عندما تحركه موجة ما إلى هذا الجانب أو ذاك والسنين الطويلة قد أحالت لونه إلى الرمادي المغبر مهما تشبّث ببقايا لونه الأخضر القديم. لا مناص للمتأمل من الغوص في لجة من أسئلة وأجوبة لمعرفة الأفكار التي سيطرت على صانعه أثناء وضع التصميم لأن شكله الغريب يثير أسئلة عدّة، إذ ما الغاية من طوله المفرط؟ فهو على أية حال قارب للصيد ليس إلاّ! وهاتان العقفتان في طرفيه ألا تبدوان مجرد استطالتين ضررهما أوضح من نفعهما إن كان لهما ثمة نفع؟ وكذلك فإن الإفراط في الرشاقة قد جعله ضيقاً لا يتيح الحركة لاثنين على متنه مهما كانا حذرين. بالإجمال؛ كأن هذا القارب صُنع لغير هذا النهر، نهرنا الذي خبرناه مضطرباً لا تهدأ له ثائرة إلاّ ما ندر، فما الذي أقنع ذلك الصانع أن يضع قارباً بهذه الصفات في لجّة كهذه؟! بل كيف تأتى لهذا القارب الاستمرار بالحياة كل هذه المدّة؟ لكثرة إلحاح هذه الأسئلة كثرت

الإجابات ــــ غير المقنعة ــــ عنها حتى شطط البعض إلى التقوّل: أنه استمد قدرته على الاستمرار من صبر أبي وشكيمته.

في النهاية كانت هناك حقيقة صادمة، تجلت واضحة أيام الضحالة وانحسار الماء وفتور همة النهر، إذ تبين أن السرّ كامن في جزئه السفلي الذي كان فيما سبق مغموراً غاطساً في الماء، فقد ظهر أن له استطالة قمعية جزؤها العريض ملتصق تماماً بأسفل القارب فيما يتعد الجزء الدقيق منها عميقاً، وهذه الاستطالة محكمة لا ينفذ إليها الماء أبداً، ومع أن هذا الاكتشاف أجاب عن أسئلة محيّرة، إلاّ أنه أثار غيرها كان أهمها:هل كانت هذه الاستطالة المغلقة على نفسها فارغة إلاّ من الهواء دائماً؟ أم احتوت على ترتيبات معينة يعرفها أبي حفظت للقارب حياته ومهابته؟ إلى الآن لم يكن ثمة جريء يفضّ بكارتها ويعرف سرّها العتيق.

مرة بعد مرة، سمح لي أبي بالذهاب معه إلى منتصف النهر في القارب، فقد كنت صبياً لحوحاً اعتبر الوصول إلى هناك فوزاً، لأن مشاعر عديدة خالطتني لم يستطع عقلي الصغير ترجمتها إلى كلمات، أما الآن فيمكنني القول: أن تلك الرحلات، لاسيما الأولى منها لم تكن بالنسبة لي فوزاً وحسب، وإنما فرصة لاستكشاف عالم أبي الغامض الذي آثره حتى على بيته ومتابعة شؤونه، فماذا يوجد في ذلك

العالم؟! كتلة الأسرار التي فُصّلت بمقاسات أبي وحده منفرداً عن بقية خلق الله؟ الأحجية الكبيرة التي ما فتئت تمدّ أبي بكل هذا الترفع والمهابة واكتناز الروح ليزهد بما سواها في الدنيا؟ إذن فالوصول أو الاقتراب من تلك الكتلة – الأحجية، ربما هو فرصتي المتاحة لمعرفة كنهها وإمكانية الإجابة عن أي سؤال ممكن.

في المرة الأولى لم أجد شيئاً، يزيد على صمت أبي المعتاد، رجحت أن السبب هو القصور في فهمي وإدراكي للأشياء، وشعوري الخفي الواثق بأن شيئاً ما سيتضح، دفع إلى التدقيق المضني بكل ما حولي، لكن الغموض ظلّ يزداد، فيزداد معه تحرّقي للمعرفة ورغبتي في التقصيّ أكثر. مضت الأيام متتالية دون أن تفصح عن جديد، وبدأت أتمرد على الصمت فسألت، وكوني لحوحاً اضطر أبي إلى أن يبوح بسرّه، ويشرح لي حرصه على أبقاء الشبكة جاهزة على الدوام بانتظار الحورية! لكن فكرة حورية لا أعرف لها شكلاً أو موعداً لم تكن لتغريني كثيراً، وسرعان ما سئمت من كوني أقضي النهار كله في مراقبة سكون لا تخدشه سوى صيحات متباعدة لطيور مختلفة، أو مرور شحيح لقوارب أخرى لا تربطنا بها إلاّ تحية متكبرة عن بعد، بينما أصحابي يلعبون ألعاباً شتى ويمرحون كيف شاؤوا ، ثم أن أبي

الذي استشعر مللي، لم يعد راغباً في وجودي وهكذا تقطعت عرى التواصل بيننا.

وبين تلك الأيام البعيدة وهذا اليوم، زمن طويل مضى، حياة كاملة، لكني لا أشعر بوجودها اللحظة، رغم أنها كانت حياتي أنا، كأنها وقت مستقطع ثقيل ليس إلاّ، ولا أشعر برغبة حيّة لتذكرها أو استعادة أي جزء منها بينما تلح عليّ الأيام الأولى إلحاحاً محبباً، حتى وقفت مستظلاً بظل شجرة التوت العملاقة النابتة على جرف نهرنا، أمعن النظر في قارب أبي الشائخ المهيب وسرور غريب يملؤني من كونه ما زال معافىً، لم تزده الأعوام، أعوامي المملة إلاّ تماسكاً بعض الشدادات من الحبال تهرأت، تماما كما تهرأت شدادات ركبتي، وارتفاع النهر يغويني، ووسواس الحورية يتملك روحي المدحورة، كنت غراً عندما استخففت شأنها، هل يمكن أن تظهر حقاً ؟هل انتظرها ؟ لا مناص لي، فحورية أبي هاجس سيجعلني أتابع أيامي الباقية وهي تنساب مع مويجات النهر من على ظهر القارب ذي الطرفين المعقوفين.

بغداد 2012

أمنيات بلا أنياب

كان الحديد الامريكي المتقن، مايزال يزعق في سماء بغداد، واختفى "الصحّاف" تماماً. ورغم كثرة التخمينات، لم يكن لاحد ان يؤكد شيئاً مما سيأتي. فوضى، والفوضى جعلت زادنا الأساس: الأحاديث.

كنت اسميّه الرجل الصامت، لانه ينهي عمله باتقان وصمت، رجل قارب الخمسين حينها، حجمه ضئيل، وملابسه رثة دائماً، لكنه يقوم بكل الاعمال التي لا يقدر عليها غيره من اصحاب المحلات والبيوت أو التي لايتنزلون لمستواها! تنظيف الاسطح، تسليك المجاري، نبش مخازن متروكة وترتيبها ومثلها كثير، يفعل ذلك بانهماك هادئ، حتى ليظن من يراقبه انه كان يهوى هذه الاعمال رغم أجرها البخس. اليوم وأنا أراه بعد عشر سنوات، تذكرت ذلك اليوم الذي جلس فيه قربي على الدكة التي تتقدم المحلات المغلقة في الكرادة. أحببت ان أحادثه، فاخراجه من صمته يعدّ انجازا فارقاً متوقعاً أن أمر الحديث سيكون سهلاً بعدها، لكنه بعد جملة او اثنتين أخذ يدهشني، فقد انثال بحديث خلطه بانكليزية جذابة! جاريته في البداية بحدود معرفتي

البسيطة، لكنه وبتأثير استفزاز لم أفهمه، غادر العربية تماماً وأخذ يرطن بأنكليزية متقنة فوجدت نفسي في مأزق، إذ لم يبق من تفوقي الذي كنت أتوهمه الا ان اسأله عن تحصيله الدراسي، فصعقني قوله الخالي من التفخيم أوالتبجح، بطريقة من اضطر الى إيصال معلومة مطلوبة اعترضت حديثه المتفاءل بالمستقبل الآتي بعد التغيير: إنه يحمل دكتوراه بعلم الفيزياء! ولّما لمح اندهاشي، وربما شكوكي، أكدّ ليبرر الالتباس، انه سجين سياسي وانه ... الخ. فحلّت صورة أخرى مشوّشة عنه في ذهني عندها. أما هو فلم يكن هذا موضوعه، بل التخمينات التي كان يصرّ عليها. مرّت لحظات صمت تغيّرت فيها ملامحه وأطرق لدقيقة ثم رفع رأسه ونظر إليّ بوجه مصفرنظرة سريعة مبهمة مابين الغضب والانكسار، ثم حول نظره إلى الأمام وضيّق ما بين حاجبيه فأصبحت عيناه مجرد نقطتين تائهتين تبحثان عن مثابة وسط صحراء من الحزن. قال لي:

ــ لماذا سألتني عن ماضٍ يجب أن يندثر؟

ــ كنت، أعني...

أكمل هو دون أن يصبر على تلعثمي:

ــــ كان يمكنك أن تنهي حديثنا بأية طريقة غير هذه، لكنك أصررت لذلك سأسألك بدوري، هل تعلم ماهو الفرق بين الزوجة والابنة ؟

أملّت أن يخرجني سؤاله " السهل "هذا من الوضع المربك الذي وضعت نفسي فيه فأجبته:

ــــ الفرق كبير بالتأكيد. قاطعني فجأة وقال بنبرة نزقة:

ــــ لا، أنت لاتعرف .. لاتعرف، أنا أعرف، الزوجة يمكن أن تخون أمّا الابنة فلا، هذا أهم ما يمكن قوله.

تذكرت شيئاً مهما أن الرجل له إبنة يحبها بجنون وهي طالبة في كلية الطب وليس له زوجة دون أن أعلم السبب. عاد إلى القول بطريقة أهدأ:

ــــ السبب في ذلك هو أن الابنة لاتقارن أحداً بأبيها، بالنسبة إليها الأب نسخة مفردة أما الزوجة فهي لاتقارن فحسب بل تفاضل، وباستمرار، هذا هو السبب .. تماماً هذا هو السبب.

ــــ ماعلاقة هذا بما نحن فيه؟

نظر إلي نظرة شعرت معها أنني تسرعت بسؤال غبي وكان الأجدر بي الصمت.

ــ العلاقة هي .. أن الحكومة كانت تعطي لبعض النساء أجهزة تسجيل صغيرة ملعونة، "صباح السهل" لم يكن حالة خاصة بل شائعة، لكن لا عليك (تغيّر كل شيء فيه فجأة، تلفت وابتسم ثم مرر أصابعه بين بقايا شعره الأشيب ابتداءً من هامته الواسعة) المهم الآن، انظر إلى هذه السيارة التي تركبها، إنها من طرازالثمانينات حسب معرفتي؟

ــ صحيح هي من بداية الثمانين.

ــ لا يمكن أن تكون هذه هي سياراتنا سنركب "أحدث من الحديث" كمرحلة أولى طبعاً ثم سيكون هناك سواق أفارقة، من "موزنبيق" مثلاً أو من "تترانيا" فهم أذكياء وقنوعين، حسب معلوماتي.

كانت تدعم حديثه باستمرار ابتسامة واثقة تكشف عن ضرس ضاحك واحد يبرز من مقدمة فمه، أما اليوم بعد عشرة أعوام رأيته على الدكة ذاتها، ملابسه لا تختلف عما كان يرتديه حينها يحدّث شخصاً يجلس إلى جانبه ويبتسم، لكن ذلك الضرس قد اختفى.

بغداد 2013

سأحكي وتنصتين

بات الأستاذ ساهي ليلته بهناء، لم يسهد كما هي العادة، وأصبح رائق المزاج أقرب إلى التصديق أنه سعيد؛ حتى أن زوجته سمعته يدندن أغنية لفيروز كان شغوفاً بها زمان شبابه ثم رأته أمام المرآة يصفف باهتمام ما تبقى من شعره على الجهة الخلفية من رأسه، فصمتت وتجاهلته خشية انقلاب مزاجه وهذا ما يحدث عادة، مكتفية بالتضرع لدوام هذه النعمة أطول مدّة ممكنة. لملم أوراق امتحان طلبته التي قيّمها أمس راضياً عن أدائهم وقبل أن يخرج اختلس نظرة إلى باب غرفة ابنتيه وحين اطمأن إلى أنها موصدة مرّ على المطبخ مفاجئاً زوجته بقبلة على خدّها، أمسكت هي بدورها يده لتعيد إليه قبلة على خدّه فضحكا كما لم يفعلا منذ زمن بعيد ثم ودّعها. سمعت صوت الباب الخارجي يغلق فتنهدت وهي تبتسم وفكرت بحيرتها اليومية المعتادة: ماذا ستطبخ للغداء؟ بعد تلك اللحظة سمعت طرقاً قوياً متلاحقاً على الباب، دقّ قلبها وأسرعت لتضع شالاً على رأسها ثم ندهت: منْ؟ جاءها صوت زوجها: أنا .. افتحي الباب بسرعة. دخل مسرعاً مرتبكاً وتوقف وسط المطبخ، نظرت إلى وجهه فوجدته شائخاً

متغضناً مصفراً كليمونة جافة، وحين استفسرت منه فتح يده اليمنى المرتعشة فإذا بها رصاصة تلمع بلون الذهب، وضعها على منضدة الطعام ببطء بينما وضعت هي يدها على فمها وعيناها مفتوحتان على وسعهما، جلسا على كرسيين متقابلين ينظران إليها بصمت وحيرة. قالت له بهمس: من أين جلبتها؟!

– جلبتها؟! هكذا إذن، أنا أجلب هذه؟ أنا لم أجلبها هي اعترضت طريقي توقفت عند العتبة لأشعل سيجارة فلمحتها، لابد أن أحدهم وضعها، ما معنى ذلك؟

– لماذا لم ترمها بعيداً؟ أو تتركها في مكانها وحسب؟

– فكرت برميها لكني خشيت أن يراني أحد، تصوري.. الأستاذ ساهي يرمي رصاصاً في الصباح! ولو تركتها ومرّت سيارة شرطة ولمحوها بماذا يفسرّون ذلك؟ تصوري.. لو أن أحدهم وُجدَ مقتولاً كما هي العادة ولا دليل على قاتله كيف سيكون تفسير وجود رصاصة في باب بيتي عندها؟ لا تعلمين؟ وأنا كذلك لا أعلم.

– بعد لحظات ستخرج ابنتانا للمدرسة وستمران من هنا بالتأكيد فهل تنوي إبقاء هذه الشريرة هنا؟ كانت تشير إلى الرصاصة طبعاً، فأخذها ووضع يده تحت المنضدة ثم خرجت البنتان فعلاً مسرعتين، استغربتا عدم وجود السندوتشات اليومية لكنهما لم تسألا أمهما

لأنهما لاحظتا توتر الجو في البيت فرجحتا خصاماً بين الوالدين لذلك غادرتا بصمت.

نسي الأب عمله أو تناساه لأن فكرة وجود الرصاصة قد هيمنت عليه، كيف جاءت؟ ولماذا في باب بيته هو دون باقي البيوت؟ هل هي مجرد مصادفة أم هناك معنى محدد أو رسالة ما؟ كيف ستكون ردّة فعله إزاء كل هذه الاحتمالات؟. تنبهت الزوجة فجأة فقالت: لماذا لا تخرج لتطمئن على البنتين؟ خرج فعلا بعد أن أعاد الرصاصة إلى مكانها الأول فوق المنضدة، ثم عاد بعد قليل ليقول: لقد أخذتهما سيارة المدرسة. جلس في مقعده قبالة الزوجة التي بادرته بالقول: لماذا لا تذهب للمدرسة أنت أيضاً؟

- هل أتركك وحيدة في البيت؟
- وهل هذا أول يوم تتركوني فيه وحيدة؟
- لكن هذا أول يوم تدخل فيه رصاصة حقيقية إلى بيتنا.
- لِمَ لا تضعها في درج أو تخفيها بين الملابس؟
- ماذا لو تعقبتها الشرطة ووجدتها؟ كيف ستتصرفين؟
- لن تأتي الشرطة، لا أظن ذلك.
- ماذا لو أن إحدى البنتين وجدتها مصادفة؟ كيف ستبررين وجودها؟

- ....

- لن أتركك معها أبداً، هذه أشياء يحسمها الرجال!

مضت ساعات، كانا ما يزالان على حالهما ينظران إلى الرصاصة يكادان لا يتكلمان إلاّ نادراً، ثم نهض بحركة مفاجئة سريعة توحي بأنه وجد حلاً مناسباً وحاسماً، راقبته باهتمام وهو يضع الرصاصة في جيب سترته الداخلي ثم زرّ أزرارها بعناية تفضح انتظاره سؤالها عن عزمه، وحين سألته فعلاً أجابها بنبرة مفخمة: عليّ إبعاد الخطر عن بيتي.

- ما الذي ستفعله بالتحديد؟

- سأتخلص منها بطريقة مضمونة، أعني أن لا تسبب لنا الأذى.

خرج من البيت دون أن يكون له اتجاه محدد أو طريقة ما، ظل يدقق في الوجوه التي تصادفه محاولاً تفسير كل نظرة أو حركة لعله يجد علاقة ما بين ذلك ووجود الرصاصة عنده، أحسّ أن الأشياء كلها تقريباً تختلف اليوم عن الأيام السابقة، هو نفسه يختلف فهو أكثر دقة وربما أكثر ذكاءً لأنه يرى لأول مرة أن ألوان بيوت الجيران قاتمة أكثر من المعقول مستغرباً عدم انتباه الناس إلى هذا وكيف لم ينتبه هو إليه كذلك! نظر إلى الورود المرسومة على جدار روضة الأطفال في رأس الزقاق الذي ينعطف منه يومياً نحو الشارع العام مفكراً أن الرسّام كان بإمكانه الإكثار من اللون الأبيض والأصفر بدلاً من الأحمر الطاغي

لكانت أعطت شعوراً مبهجاً ومريحاً، سمع صفارة في الشارع الرئيس فظن أنها سيارة شرطة، تحسّس لا إرادياً جيب سترته ليجد أن الرصاصة ما زالت تستقر فيه ثم مرّت السيارة فتبين أنها سيارة إسعاف وليست للشرطة، تنفس مسترخياً وحاول بعد ذلك جاهداً أن يتذكر آخر موضوع كان يفكر فيه لكنه لم يفلح فعاد للتفكير بالرصاصة وكيفية التخلص منها، ابتعد عن منطقته فأحس بالرضا لأنه وعد زوجته بإبعاد الخطر عن البيت لكنه لم يكن يمتلك فكرة عن الطريقة الممكنة للتخلص نهائياً من ورطته وكان يعتمد على شيء مبهم يؤمن بوجوده دون أن يعرفه، مزيج من الحظ والتصميم على مخاتلة القدر! لذلك واصل المسير.

وصل إلى مكان يتخذه الناس مكبّاً مكشوفاً للنفايات، توقف عنده قائلاً في نفسه: الآن عرفت لماذا يتفق الناس عادة على مكان يلقون فيه الأشياء التي لا يريدونها لأنهم ببساطة لا يعرفون طريقة أفضل، هل ينطبق هذا على حالتي والرصاصة التي لا أرغب في شيء الآن أكثر من التخلص منها؟ هل ألقيها وسط القمامة ثم أمضي؟ قفزت إلى ذهنه حكاية تداولها الناس فترة وهي أن الأطفال أضرموا النار في قمامة كهذه وانطلقت منها رصاصة لتصيب أحدهم، لم يتذكر النهاية رغم أن الخواتيم مهمة في مثل هذه الحكايات الشائعة إلاّ أن الأهم صار

عنده هو الأسباب لأن كوارث حدثت لأسباب تافهة ومن هذه وجود رصاصة في جيب أحدهم يلقيها بغباء في مكب للنفايات!.

حرّكه إيمان بأنه سيجد قريباً طريقة مثلى تنجيه لذلك مضى دون تردد، حين لفظته الدروب والأزقة إلى الشارع الرئيس من الجهة الأخرى البعيدة شعر بالتعب فجلس على دكة إسمنتية في نقطة انتظار حافلات نقل الركاب، ألقى بجسده المنهك وبعد فترة شعر بالحاجة إلى حديث ما مع أحدهم لكن المكان كان خالياً لأن الناس يعودون إلى بيوتهم في مثل هذه الأوقات، كان سائقو سيارات الأجرة يخففون السرعة ويطلقون المنبه أملاً في اصطياده كزبون محتمل. تحسس الرصاصة وأخرجها من الجيب، نظر إليها ثم خشي أن يلحظها احد فدسّ يده والرصاصة معاً في جيب البنطلون واستمر يتحسسها ثم قال بصوت مسموع: آه لو كنتِ تسمعين أو تردّين لحدثتك عن أشياء خطيرة تخصك ولا تعرفينها، نعم كما لا يمكنك الآن معرفة خوفي منك أنت الباردة الصلدة الناعمة، خوف لم يكن بلا ثمن بل لأنك استحققت ذلك بقوة فأنت من ثقّب رجل البعثات الأبيض السمين، أنا أذكر ذلك جيداً كأنه البارحة، وكأن لم تفصلني عن ذلك اليوم عشر سنين كاملة، كنت أستقل "كيا" مع راكبين آخرين متجهين إلى إحدى المحافظات، في منتصف الطريق تقريباً اضطر السائق للانحراف

عن الجادة الرئيسة نحو أحد البساتين الجانبية بسبب انفجار أصاب عجلة عسكرية أمريكية، كان الدرب الجانبي زراعياً وعراً غير معبد تحف به أشجار متنوعة من الجانبين وفي انحناءة قريبة وجدنا بانتظارنا شابين مسلحين ملثمين أحدهما سمين وقصير والآخر نحيف وطويل، اقترب هذا منا بعد أن امتثل السائق لأمرهما بالتوقف نظر إلى وجوهنا بتمهل كأنه يصورنا أو أنه يبحث عن وجه ما بالتحديد وقبل النطق بحكمه فينا مسّه صاحبه بخاصرته منبهاً فالتفت هو والتفتنا نحن كذلك فإذا بسيارة بيضاء حديثة من تلك السيارات التي تستعملها عادة الشركات أو البعثات الأجنبية تحاول تجاوزنا من اليسار فأوقفاها، فيها راكبان إضافة إلى السائق أحدهما في المقعد الأمامي يشبه السائق شكلاً ويقاربه عمراً وهما رجلان أبيضا البشرة وسيمان ممتلئان في الثلاثين تقريباً، أما الآخر في المقعد الخلفي فهو رجل في الخمسين أنحف من صاحبيه أسمر الوجه معتدل الملامح له شارب أسود بارز. انصرف اهتمام المسلحَين نحوهما كصيد ثمين مفاجيء، شعرت أن هذه قد تكون فرصتنا في النجاة لكني لحظتها لم أكن قادراً على النطق رعباً من مصير بات معلوماً، تكفل ذلك شيخ من الركاب طلب من السائق التحرك لكنه لم يتحرك بل كأنه لم يدرك بعد شيئاً مما حوله أو أنه سلّم بالنهاية كنعجة تقاد للذبح، ألح الشيخ فتحركت السيارة أخيراً.

كان هذا في الصباح فلما عدت بعد الظهر وقد أنجزت عملي مررنا بالمكان ذاته فلمحت السيارة البيضاء ذاتها في مكانها إلاّ أن اتجاهها تغير فتوقفت بشكل مستعرض لتكون جهة السائق هي الأوضح بالنسبة لسالكي الشارع العام، كان رأسه ملتصقاً من هامته بالمقود وقد تدلت ذراعه من النافذة خارج الباب الموصد الذي كثرت فيه لطخات حمراء مسودة تنتهي ببركة جافة على الأرض، وبسرعة استطعت رؤية الآخر الجالس جواره ساكناً التوت رقبته نحو الجانب البعيد في وضع مؤذ لا يحتمله إلاّ من لم يعد يؤذيه شيء بعد، فيما اختفى ثالثهما الذي كان في المقعد الخلفي، كانت اليد المتدلية مكشوفة حتى أعلاها لأن الرجل يرتدي قميصاً صيفياً مرتفع الكم لذلك فإن الثقوب التي تسبّبتِ بها كانت واضحة عليها إضافة إلى عدد أكبر ثقّبت الوجه والرأس، ألا تذكرين؟ أنت تذكرين الأيام التي كان الناس فيها يُتركون على تلك الهيئة ساعات وربما أيام.

أشياء وحوادث كثيرة سقطت من ذاكرتي وأكثر منها لم أشهدها أصلاً ولم أسمع بها، آه تذكرت واحدة، صباح يوم شتوي بارد وأنا أتلفع بمعطفي السميك وقد أنهيت الزقاق لأنعطف في الشارع العام وهو طريقي اليومي للمدرسة رأيت تلميذاً يدخل الزقاق راكضاً يتلفت خائفاً وهو ينوء بحقيبته المدرسية الثقيلة حاولت الاستفسار منه

لكنه لم يهتم لأمري أبداً، لقد غاب عن وجهه الصغير لون الحياة لا تمهله أنفاسه المتلاحقة المضطربة لحظة بكاء حتى، مع هواجس تلك الأيام وددت لو أفعل مثله فأعود للبيت مسرعاً لكن ما يباح للتلاميذ أكثر بكثير مما للأساتذة، اضطررت كوني رجلاً ناضجاً ومدرساً إلى المواصلة وحين انعطفت لم ألحظ ما يثير أو يفسّر هروب الولد لكن قلقاً خفياً تعمق داخلي، السيارات تمرّ في كلا الاتجاهين ولم يكن في الشارع من أحد إلاّ عاملي تنظيف يقفان في الجهة الأخرى ينظران إليّ فتوقفت، على يميني بمسافة مترين تقريباً عمود للكهرباء سرمدي الوجود تستند عليه خشبتان مهملتان يستعملهما عصراً عجوز يبيع الخضار تعوّدت الشراء منه عند عودتي، عرفت أن عاملي النظافة لم يكونا ينظران إليّ بل إلى رجل مثقّب الوجه والرأس والصدر يبدو أنه استنجد بخشبتي الخضار بينما يحاول تحاشيك أنت بالذات لكنه لم يفلح.. لم يفلح، نسيت تماماً وقاري وكوني مدرساً ناضجاً وأطلقت العنان لقدمي في اللحاق بالولد الهارب.

لم أخرج من البيت بعدها أياماً وحين ألزمتني الحاجة للخروج أخذت معي ابنتي الصغيرتين إلى الدكان وأنا تحت ضغط تصور أنك ستنطلقين باتجاهي من فوهة حامية فلم أجد درعاً أفضل من طفلتيّ آملاً أن حامل الفوهة سيشفق عليهما ويغيّر اتجاهها، سأحكي وأنت

تنصتين. تحسّسها كمن يطمئن لوجودها سألها: لماذا جلسنا هنا؟ هل من غاية محددة؟ عندي فكرة عبقرية لو نفذتها أكون تخلصت منك بشكل مثالي، سننتظر حتى تأتي سيارة شرطة، سيثيرهم ربما جلوسنا الطويل هنا، أشاغلهم بحديث ما لأضعك في مكان مناسب منها هذا آخر ما سيفكرون به لكن فشلها سيكون وخيماً، مجرم أبله لن يتمنوا شيئاً أفضل من ذلك، ربما أكون قد رأيت هذا في فيلم أو ما شابه؟ كيف قفزت إلى ذهني هذه الفكرة الغبية؟ يبدو أنني تعبت وصرت أتخيل أشياء غير واقعية، الجلوس الطويل وحيداً يوحي بالنوم كم أود العودة للبيت لكني لا أريد أن أبدو خائباً أمام زوجتي ناهيك عن خطر عودتك معي.

بعد قليل شعر أن جفنيه يثقلان وأن النوم سيطبق عليه في أية لحظة، ثم أحس بألم في رقبته نتيجة تدلي رأسه عليها فعلم أنه نام فعلاً أخذت لذّة النوم وحاجته تلحان عليه بالمواصلة فأسلم عينيه لنوم جميل، شعر برأسه المتدلي إلى صدره سيكسر رقبته الطويلة النحيفة فأعاده إلى وضعه الطبيعي متثائباً ثم جمع شتات إدراكه ليعرف سبب نومه في هذا المكان فتذكّر الرصاصة التي في يده لكنه بوعي منقوص لم يجدها! فأعاد ترتيب الأحداث مع أزمانها فتوصل إلى أنها يجب أن تكون الآن في يده المدسوسة في جيب بنطلونه تحسّس أصابع كلتا يديه الفارغتين

أكثر من مرة، لا تفسير لما يحدث ! ربما سقطت هنا أو هناك بين قدميه مثلاً، نهض يتلفت فلم يتوصل إلى شيء، جلس ثانية مغمضاً عينيه يلعن الشيطان الرجيم وهي طريقة مجربة عند فقدان الأشياء لكن الرصاصة لم تظهر، لا أحد ينظر إليه أو يهتم لأمره ربما هو في حلم، هكذا شكّ في داخله، هناك طريقة واحدة للتأكد من ذلك.

عاد مسرعاً للبيت، وجد الزوجة تجلس على الكرسي الذي تركها عليه نظرت إليه نظرة مستفهمة، لم يبادر في كلام أو إشارة فقالت هامسة: هل تخلّصت منها؟

- ماذا تقصدين؟

- ماذا أقصد؟! ماذا تقصد أنت! الرصاصة طبعاً. أدرك أن موضوع الحلم لا وجود له وأنه مضطر ليحكي لها حكاية نومه كلها، بعد أن أنهى حديثه جلسا كجلستهما صباحاً حائران ينظر كل منهما للآخر وإلى مكان الرصاصة الفارغ على المنضدة يفكران.. في طريقة ممكنة لتفسير غيابها أو لإيجادها.

انتهت.

بغداد/ 17: 11: 2016

حادثة مكررة قرب معلم المدينة الأكبر

ــ قتلناه، ألاّ تصدق؟ أنا نفسي أخذت منه ثلاث طعنات شافية في ظهره.

ــ قتلتم الرجل الذي حمل إليكم جرار العسل؟!

ــ جرار العسل؟! كانت أيام قحط لو عشتها مثلنا لفهمت أو حتى لكنت معنا.

ــ كم عمرك ياعجوز الشؤم ؟

ــ ربما بلغت الأربعين.

ــ عجيب! تقول أنك شاركت بحادثة ذلك الرجل قبل مئة سنة وربما تزيد؟!

ــ تلك حكاية أخرى.

ــ أية حكاية تعني؟

ــ أنت ترهقني.. حكاية رجل الجرار تلك.

ــ إحكها لي ثالثة أيها الرجل العجيب.

ــ وهل عجيب أن أعبر المئة بسنين ؟

ـــ بل العجيب أن تحدثني أنا الذي لم أخرج من صلب أبي بعد.

ـــ هذه حكاية أخرى أيضاً.

ـــ كثرت الحكايات "الأخرى" وأنت تعلم أنني لا أريد سوى أن تعيد ما فعلتم بالرجل.

ـــ جاء الرجل من أقصى المدينة يسعى، يجرّ حماراً "حيساوياً" أبيض جيد البنية على ظهره جرار علمنا بعد ذلك أنها من العسل المصفى في سنة قحط وجوع لم تشهدها المدينة لأجيال خلت.

تجمعنا حوله نبغي معرفة نواياه في زمن تزاحمت النوايا فيه، فأخبرنا بابتسامة واثقة أن كل هذا العسل سيكون ملكاً مقطوعاً لمن يبني الجسر القديم، ثم عاد ليؤكد أن إعادة الجسر المهدم إلى الحياة هي غايته المنشودة. أغاظنا كلامه لسبب غير واضح، فانسحب أكثرنا لأن الأطماع قد سحقها شرطه المعجز وبقينا ثلة من شباب لم نيأس بعد من المحاولة فاغراء العسل لا يُقاوم، زادت ابتسامته حتى بانت أسنانه الجميلة في وجهه الأبيض الباهر ظناً منه بأننا حسمنا أمرنا بخصوص البناء، فصار يكرر ويعيد كلاماً يحثنا فيه حتى طفح الكيل بنا غيظاً وحنقاً، نظرنا الى بعضنا نظرات تفاهمنا على مغزاها جميعاً ويبدو أن اللعين قد فهمها كذلك فاختفت الابتسامة تلك عن وجهه وتراجع للوراء وجلاً وتقدمنا نحوه ببطء، تراجع هو أكثر ناقلاً بصره بين

وجوهنا بالتعاقب، بدأ وجهه بالاصفرار وارتعشت أطرافه ومع أن الحمار صار بما يحمل وراءنا لكننا استمررنا نتقدم باتجاهه واستمر هو بالتراجع وتمتم بمشقة: الحمار وحمله لكم.

لم نجب بل كأننا لم نسمع أو نفهم ما قال، عندها أيقن من نوايانا فتطيّر وفرّ هارباً مذعوراً باقصى سرعة تمكنتها قدماه فانطلقنا من فورنا نتبعه بعناد أهوج فيما مكث كبيرنا وزعيمنا عند الجرار، ورغم معرفتنا بأنه غريب عن دروب المدينة وأزقتها إلاّ أنه كان يركض كمن يعرف الاتجاه الذي يريد، لم يتردد في أي مفترق لذلك لم يعطنا فرصة الاقتراب حتى وصل دار معلم المدينة الأكبر وقاضيها مستنجداً ولّما كان باب الدار مشرعاً على الدوام فأنه دخل لوجهه، ولأننا كنا نشغل بالنا بفكرة النيل منه فأننا لم نفكر عند رؤية خادم البيت يغلق الباب بعد أن دخلها المطارد وقبل أن نصل كأن الخادم كان ينتظر عند الباب أو كأنه كان معنا ويعرف ماعزمنا عليه، لم يوقفنا هذا لندقق أو نلتفت إليه بل صدمنا الباب بأجسادنا الفتية المندفعة فخلعناه ودخلنا مروراً بغرفة الدرس العظيم واثقين أن المعلم ذاته لا يبرحها هنيهة من الزمن.

اتجهنا نحوه نلهث بعد أن وقف في زاوية من زوايا البيت حائراً تعباً، كنا نعلم أن هذه هي فرصتنا الأثيرة، لطمه أجسرنا على وجهه فصاح

متألماً وسقطت عمامته ثم سحبه اثنان من ذراعيه وثالث قبض على فروة رأسه المدهونة والمعطرة بعطر قوي أخاذ بعد أن ركله ولد قوي البنية أسفل ظهره فارتخت قدماه، استنجد بالخادم كآخر محاولة في طلب الخلاص لكن هذا التصق بالحائط مرتعشاً بعد أن رأى البلطات صارمة تحت آباطنا ووجوهنا تتلفت لترمي نظرات ثابتة العزم لاريب فيها. على عتبة الباب طعنه الولد الجسور في خاصرته أول طعنة فأنَّ لها أنينا عالياً متصلاً محاولاً تحرير جسده من أكفنا القابضة فتركناه جميعاً بعد أن أحطنا به في الزقاق لنراقب ما يفعل وكيف سيموت لكنه استقام وخلع بسرعة جبته الداكنة ليظهر بلباسه الآخر الأبيض من سروال يصل الى القدمين وقميص عريض اصطبغ بالأحمر من جهته اليمنى ووجهه الى السماء يطلب الهواء بفمه وأنفه، نقل قدمه بصعوبة نقلتين ظننا أنها كانت بغير قصد لكنه كان يقترب من ثغرة لم نلحظها وبينما كنا ننتظر سقوطه فاجأنا اللعين بالركض سريعاُ في احدى الدروب الضيقة فغضبنا لذلك أشدّ الغضب وتبعناه مجللين بالخزي لأنه خدعنا وأهاننا، كان الدرب أضيق من أن نتجاوزه ونقطع عليه طريق الفرار فتعاقبنا على النيل منه بالبلطات في ظهره كلما تمكن أحدنا من ذلك وهو يصيح ويستنجد بالأبواب التي أغلقت كأن الدرب ليس الاّ درباً في مدينة مهجورة.

تباطأ سعيه حتى مسكناه مسكاً وأدرنا وجهه ناحيتنا، كان يلهث بشدة وفي أنفاسه رائحة الدم التي اختلطت برائحة عطره الفواح، عيناه شبه مغمضتين، آه .. تستطيع القول أنهما كانتا ساهمتين بأهداب طويل فيه شقرة آسرة كعيني حسناء عاشقة تسهم وجداً، ورغم أن الرجل كان يحتضر ويداه مسبلتان لا يقوى على رفعهما الاّ أن أخشى ما خشيناه أن يخدعنا ثانية بلعبة من ألاعيبه، فهو مايزال واقفاً متصالباً ولشدّ ما أغاظنا أننا كنا نلمح طيف ابتسامة على وجهه، يا لتلك الابتسامة والأسنان البيض المتراصة التى لا تنسى، أكثر من مئة عام و لم أنس لحظات تغلغلها في وجداني، مئة عام وأنا أكرهها كما لم أكره شيئاً مثلها. نحره الولد الجريء بسرعة خاطفة ليحسم الأمر ودفعه نحو إحدى العتبات ليقع على ظهره قطعة لحم كبيرة مدماة هامدة.

ــ وجرار العسل؟

ــ أنا لم أذقها لأن حصتي منها ظلت تتراءى لي حمراء، ربما كنت واهماً لكنني مرّة بعد مرّة كرهتها وعافتها نفسي.

ــ ألم يعترض على فعلتكم أحد؟

ــ بلى آباء وأجداد ميتون وقد هممنا أن نبيدهم في ساحة المدينة الكبيرة لكن آباء آخرين تكفلوا بدفنهم ثانية، أما العجوز الصلعاء،

مجنونة المدينة الشمطاء فقد تركناها لحالها تندب وتعوي كما يعوي كلب أجرب.

ـــ أهذا كل شيء؟!

ـــ ماذا تعني؟

ـــ أعني الحكاية.

ـــ بلى اذا استثنيت أن الجرار والحمار والزعيم قد اختفوا جميعاً وأن آخر آجرة في الجسر القديم سقطت في ليلة دهماء وعند الصباح دفعناها بأقدامنا نحو منتصف النهر ليأخذها المجرى أو لتستقر في القاع العميق، لا أتذكر تماماً، الآن لا أتذكر.

حكاية لا يمكن الاخبار عنها بسهولة

نظرتُ إلى القطار نظرة طويلة، تليق بهذا المخلوق العجيب في شكله وحجمه، وطبعه كذلك، فهو كاتم أسرار الممتطين ظهر عرباته ومادة الشعراء التي لم تنضب يوماً، ألبسوه الثياب التي يريدون، آهات فراق ودموع وداع ومسرّات لقاء وخيبات أمل وهكذا، فضلاً عن أنه مخلوق يستحق الإجلال لمواقف حفظها له التاريخ، لن ننسى مثلاً أن عرباته وفي وقت واحد، كان البعض منها يزدحم بجنود عائدين من غيبات طويلة ومؤلمة، محفوفة بالموت، بينما تكدّست في الأخرى الملاصقة لها جثث لا عدّ لها أو أجزاء من جثث كانت لزملائهم ستعود إلى ذويهم في مختلف محافظات البلد بعد أن أعجزت أعدادهم في ثماني سنين متواصلة سيارات "الكراون" وهي تؤدي هذه المهمة.

قررت أن أستقل أول قطار سيتحرك، لم يعد الزحام كما كان في تلك الأيام الخوالي. وصلت إلى قاطع التذاكر، سألني: إلى أين؟. قلت: لا أدري. رفع بصره نحوي بسرعة، لكنه تبسّم حين رآني كأنه وجد في وجهي ما فسّر استغرابه، عاد إلى تذاكره الصغيرة، كتب شيئاً على إحداها ثم مهرها ليدفعها نحوي، أخذت الوريقة الصغيرة فوجدت انه

كتب عليها " مدفوعة الثمن "هززت رأسي له شاكراً فهزّ هو رأسه مرّة واحدة ثم نظر إلى الذي كان يقف بعدي.

رتابة الصوت الذي تعوّد عليه ذهني بعد مدّة من انطلاق القطار ساعدتْ على شرودي بعيداً حيث قريتنا الصغيرة الوادعة، الضّاجة بالحكايات المتصلة كسلاسل من ماء، لكن حكايتي هي الأهم بالنسبة ليّ، قفزت إلى ذهني بسرعة فأنستني مدّة لا أعرف مقدارها قطاري السائر ببطء وثقة.

كم توهّمت إمكانية أن أنساها - حكايتي — أو ينساها الناس، لكن نظرة بطرف عين رجل أو امرأة كانت تنسف أوهامي تلك وتعيد كل شيء إلى ما كان عليه، قلق وانكسار وأمل واهٍ في النسيان من جديد: أمي التي انقطع عنها الطمث حتى ظنت أنها صارت إلى اليأس لكنها اكتشفت حبلها، لتخرّ باكية ضارعة إلى الله الذي كتب لها خمسةً وعشرين عاماً من زواجات عدّة فشلت جميعها بسبب عقمها حتى اقترنت أخيراً بالشائب الأرمل ليكون لها ظلاً يقيها سموم الوشايات والغمزات والتحرشات. ثم مات ذاك العجوز الذي سأفترضه أباً ليّ على أمل واهٍ من أنني سأتحقق يوماً ما من حكايتي التي ابتداءً من هذه النقطة ستتداخل فيها المتاهات والحيرة.

آه القطار يتوقف عنوةً هذا ما يوضحه الصرير المزعج نتيجة الاحتكاك الفوري بين عجلاته والسكّة الحديدية، ترى ما السبب وراء

هذا التوقف الاضطراري؟ دفع الفضول والقلق أكثر ركاب القطار إلى الترجل، بعد أن تناهت إلى المسامع أصوات رجال ونساء متأزمين ونزلت أنا أيضا ً، وجدت أن اتجاه الناس نحو مقدمة القطار فتبعتهم دون أن تكون عندي أية فكرة عمّا يجري، حالي في ذلك حال الباقين، وحين تجاوزنا عربة القيادة فهمنا أن سائق القطار توقف في اللحظة المناسبة قبل أن يدهس ثوراً حارنا ً على السكة تماما ً محاطاً بجمع من سكان المنطقة، في الوهلة الأولى ظننت أن الناس المتجمهرين هم أصحاب الثور وسيسحبونه بعد قليل ليفسحوا الطريق، لكن غرابة تصرفهم جعلتني أدقق في وجوههم فوجدتهم متشابهين في كثير من الملامح ، لا يعني ذلك أنهم نسخ مكررة من بعضهم ولكن الرائي لأحدهم سيجده قريباً من الآخرين إلى درجة أن يضطر لتفسير واحد معقول هو أنهم ينحدرون من نسل واحد، وهكذا فسّرت الأمر أنا كذلك، لكن هناك أمر آخر هو أن وجوههم ذكرتني فوراً بوجه عجوز كان قد مات في قريتي منذ عشرات من السنين، ما هذا؟ أعوذ بالله !هل خرفت ؟ لا .. لا.. لابد أن بيّ خطلاً أو مسّاً من جان ! قطع أفكاري المضِلة هذه صوت أحدهم وقد عرفت فوراً انه زعيمهم: هاتوا الزبد المحلى.. بعد قليل جاءت النسوة بجفان تفوح منها رائحة الزبد ولا بد أن السكر قد أضيف إليه، في الفترة بين أمر الرجل الكبير ومجيء النسوة بالجفان رأيت أن الثور ليس حارنا بل هو

من اختار هذا المكان ولا أحد ينوي إبعاده أبداً، الناس المتجمعون يحاولون تدليله فقط، يمسحون ظهره ورجليه ورأسه، ولاحظت أيضاً انه مصاب بإسهال شديد حتى أن شمطه امتزج بالدم، دم أحمر قانٍ يذكّر بدم البشر، لا أعرف لماذا جاءتني هذه الفكرة رغم أن الدماء لا تختلف عن بعضها، واتسخ ذيله الكبير بخليط من الشمط والدم، لقد كان ثوراً بحجم أكبر من الاعتيادي حتى أن كل شعرة من شعرات ذيله السوداء القليلة يمكن أن تكون بحجم ذيل عجل صغير، حين جاءت جفان الزبد المحلى أعطيت له ليشرب استغربنا نحن ركاب القطار جميعاً هذا المشهد، هل يريدونه أن يسهل أكثر؟ ربما سيموت! من حرصهم على تدليله كان من المستبعد أن تكون بغيتهم أذيته والفكرة المتاحة إذن، أنهم لا يعرفون أبعاد ما يفعلون . إذا توقف عن الشمط رغى فارتاح الناس لصوته وأعجبوا وإذا جاءته نوبة سكتَ وأطلق العنان لبطنه فيسعفونه بجفنة من الزبد المحلى، وهكذا مضى من النهار الكثير، ضجرنا نحن ركاب القطار المتوقف، فصرنا نعلي أصواتنا احتجاجاً على ما يجري أمامنا من تفاهات، حتى أن الرجل الشاعر، الذي كان يجلس بجانبي ملقياً عليّ قصائد رائعة اقترب منهم وخاطبهم بكلام ساحر طالباً منهم زحزحة ثورهم الجاثم على السكة ليمضي القطار إلى سبيله فتقدم نحوه الكبير بينهم ولطمه بحجر صلد على جبهته فسقط دون حراك وواصل تقدمه نحونا معززاً بأفراد من

جماعته يتطاير من أعينهم شرر الغضب فتراجعنا خطوات حتى إذا فهموا أننا لسنا ممن يواجه الصاع بالصاع، عادوا إلى مكانهم واضطررنا إلى تناسي أمر الشاعر مكتفين بالولولة إزاء الورطة التي نحن فيها، سألنا السائق عن إمكانية العودة فاخبرنا أن هذا قطار باتجاه واحد ولكن يمكن العودة لمن يريد بقطار آخر سيمر بعد ساعات على سكة محاذية، مع هذا تبقى مشكلة إقناع سائقه بالتوقف خاصة انه سيرى المشهد ولا أحد يراهن على مجازفته بالتوقف. حاول بعضنا الابتعاد باتجاه السكة الثانية أملاً بوصول القطار الآخر ومحاولة إقناع سائقه ليعودوا لكن أصحاب الثور منعوهم محذرين إياهم من محاولة العصيان و لم نفهم سبباً لذلك. اضطررنا في النهاية إلى افتراش الأرض خاصة بعد أن خيم الظلام على المكان، اتكأت على جذع شجرة قاسمني إياها رجل مسنّ ضعيف البنية همس لي أن اقتربْ لأخبرك أمراً، زحفت مقترباً فقال لي بصوت واهن منخفض: إسمع يا بني، أنا أعرف ما لا تعرفه عن هؤلاء القوم، سأخبرك ما أعرفه لتحزم أمرك قبل الصباح، ينبغي للمرء وهو يحزم أمره أن يكون على دراية. عندما قال الرجل عبارته هذه على طريقة الحكماء قلت في نفسي أوليس أولى بي أن أكون على دراية بنفسي أولاً، إنها حكايتي المبلبلة ذاتها تعود إلى ذهني بقوة أية حكاية أصدق وأيها أترك؟ وإن صدّقت هذه أو تلك فكيف بي إقناع الناس بتصديقها وترك الأخرى؟ فأمي بدّلت رأيها في

قصة مولدي مرّات عدّة حتى جعلتني أواجه السؤال الأكبر في حياتي: من أكون؟. حين كانت القرية تعرف حكاية واحدة شاعت بينهم سخرتْ هي من سفاهة عقولهم بينما كانت على حافة الخرف وأخبرتهم حكاية أخرى ثم أخرى حتى وضع الناس حكايتي في المجهول وقال سيد القرية يوماً: هذه امرأة تفتحت قريحتها بعد أن فقدتْ عقلها، يبدو لي أن الحكّائين أفضل وهم خرفون أو مجانين.

كانت القصة الأولى معقولة وإنْ شابها شيء من الغرابة، فليس ببعيد عن عاقر وهي على أطراف اليأس، أن تنذر أي نذر إذا تم لها الحمل فما بالك بليلة تقضيها وحيدة مع وليدها عند باب المسجد النائي؟ لن تكون قصة مستحيلة لاسيما وقد عُرف عنها كثرة ترديديها بقنوط: ألا يستطيع ربّ المسجد ذاك أن يضع في بطني واحداً من أولئك الذين يضعهم في بطون الخاطئات اللواتي يتخلصن من فعلتهن بلفّه ووضعه على دكة المسجد، بيت الله، بيته ليرى ذلك عن قرب كل أسبوع، ثم يعود ليضع خطأ في بطن أخرى كأنه استمرأ اللعبة رغم المصير الذي تلاقيه أغلب تلك اللفّات، ألا يلعب معي لعبته تلك مرّة واحدة وأنا العفيفة؟!.

هذه المقدّمات يسّرت أن يُعقل نذرها بعد أن أخبرنها المجربات أن أعراضها أعراض حمل فنذرت بسرعة وتلقائية أن كان هذا صحيحاً ووضعتْ ولداً لتبيتن به ليلة عند دكة المسجد الوحيد النائي دون أن

يعلم أحد: نذر بين الهزل والتحدي والرجاء، لا أدري لماذا تخلت عن حكايتها هذه ؟! لتؤثر حكايات أخرى ...

كانت ملزمة بالنذر .. هكذا أخبرها الجميع حين وضعتني أو وضعت الآخر .. بعد أيام قررت الذهاب للمسجد ليلاً متحدّية خوفها من الطريق والحكايات الكثيرة المرعبة التي دارت حول ذلك المكان فقد انتهى الناس إلى أن الجن يعشعش هناك وان أرواح الأطفال المتروكين هناك والذين أدركتهم أنياب الكلاب والذئاب والأفاعي قبل أيدي المحسنين من مصلّي الفجر، كانت تحوم في المكان وهي تحمل أجزائهم المتبقية لتعرضها على القادمين منفردين ليلاً ، مواجهة كل ذلك وهي التي ترملت حديثاً أمر يبعث على الجنون رعباً . لكن مواجهة فقدان ابنها بسبب نذر كان أشق وأمرّ على قلبها بالتأكيد، بسرّية تامّة لفلفت وليدها وخرجت متجهة بهدوء نحو المسجد في ليلة يضرب ظلامها الحالك أطناب القرية الهاجعة باطمئنان.

ربما تستغرب معرفتي بأمور هؤلاء القوم ها؟ قال لي الرجل المسن، شريكي بالاتكاء على جذع الشجرة وقبلها شريكي بركوب القطار المتوقف حتى يقتنع الثور بالابتعاد عن السكة: قلت له

- آه حقاً كيف عرفتهم يا عم ؟

– أنظر إليّ .. دقق في عيني ووجهي الهرم المتغضن .. فعلتُ كما قال لي فأحسست بقشعريرة تجتاح بدني ويملأ رأسي خوف مفاجئ، هزّ رأسه قائلاً :

– نعم ... هل فيك من يكتم السرّ؟ سنجرب .. أنا منهم، أعني كنت واحداً منهم لكني تركتهم منذ زمن ليس بالقصير فتغيرتُ وتغيرتْ كذلك بعض ملامحي فلم يعد سهلاً على الرائي لي دون قصد إدراك الشبه .. وبقيت أتسمع أخبارهم من بعيد كونهم أهلي .. أهلي الذين لا أستطيع العيش بينهم ..هذا هو الأمر .. هكذا أنا خبير بهم هل اقتنعت؟

– ... نعم.

– اعلم إذن، أن بدعة الثور الشامط ليست بدعتهم الأولى وربما لن تكون الأخيرة ... لهذا السبب أقول لك احزم أمرك الليلة، قبلها سلموا أمرهم لمالك، اسمه هكذا أو انه من سمى نفسه ... لعبة الأسماء هذه هوايتهم بل غوايتهم وقد مارس رجولته عليهم فانقادوا له بقوة وآمنوا به فكانوا يقومون لقيامه ويقعدون حين يقعد .. تبعه رهط كبير من الشباب مؤمنين بقوته وبقدرته على دحر المعتدين المتربصين عند الجبل يسيل لعابهم المسموم طمعاً بالدماء والأموال والأعراض .. سار مالك وخلفه خيرة شباب القرية نحو الجبل وعند السفح نزل الغزاة المتوحشين تسبقهم صيحاتهم المسعورة فما كان من مالك إلا أن

فرّ تاركاً شبانه اليانعين نهباً للفؤوس الثقيلة والسيوف الماضية وللرغبة الجامحة التي لا يشبعها حدّ إلى الدم ...ولم يعرف أحد عنه شيئاً فسموه المسترجل واكتفوا بذلك ثم اضطر شيوخ القرية إلى صفقة مع الغزاة حينها ليخلّصوا رقبة كل ذكر حيّ مهما كان عمره، عاد الغزاة بعدها أدراجهم وتركونا لعارنا، آه من تلك الصفقة؟

– وما هي ؟!.

– دفعوا لهم كل ما يملكون من أموال وعدد لا يحصى من البنات...بناتنا اللاتي كنّ موفورات الخدر، عزيزات الأثمان، بيض طويلات ورديات الخدود لوزيات الشفاه، آه ماذا أقول جردوهن أمامنا وضاجعوهن دون غطاء أو ستر في الزرائب وأقنان الدجاج وضربوهن قبل أن يجرّوهن بالحبال مطأطئات الرؤوس شعثات الشعور، ومضوا بهن حيث لا أحد يدري. بعد هذا الذي جرى لم يكن لرجل منّا أن يشذب شاربه أو يتزين أو يتعطر وهكذا مضت السنين حتى ملّت النساء من العويل وأشتاق الرجال إلى النسيان، في هذه الأحيان كنت قد ابتعدت عنهم وصرت أتسمع أخبارهم من هذا وذاك وعرفتُ انه قد ظهر بينهم الصبي المائع الذي ورث عن أجداده بيدراً من الذهب والفضة والنفائس الأخرى فقد كانوا صاغة لا يُدانون، لكنه بدل أن يهتم ببيدره ذاك عمد إلى المتاجرة بالكلام، لا تضحك فهذه حقيقة، حاول إقناع الناس بأن الحروف إذا خُلطت

بالعسل تعطي معجزات فسخر منه العقلاء والتف حوله الصبيان الموهون بكل جديد يطرى والنساء المبهورات بجمال وجهه ورخامة صوته وماله الوفير حينذاك. لقد كان فتى لا يتعب حتى خرج عن كل حدّ بلا حياء فصار له جيش من الأفواه النهمة فنفد العسل المنقى واضطروا إلى المزيف منه وهم يعلمون، ثم فسق وفسقوا حتى جاء يوم أفلس فيه بيدره وانفضّ من كان حوله وتوارى كأنه لم يكن. سألته : ألم تكن لك عائلة هنا؟ فترقرقت عيناه بالدمع قائلا : كان لي ابنٌ ذهب مع حملة مالك المسترجل وقد نصحته بعدم الذهاب لكنه عصا أمري.. تصّور! جحدني دون أن يكون له جبل يعصمه حتى. ولست أدري أين مالت به الدهور أفي بطن الذئاب والسباع أم في حفرة من الحفر، أرأيت؟ لم يبق لي شيء يستحق المكوث من أجله.

أسأل عن عائلته وكأني أعرف ما هي العائلة ! ألم تكن العائلة وما خلّفته من حكايات هي السبب في هروبي من قريتي ووصولي إلى هنا خائفاً فلماذا أسأل سؤالاً يجسّ جرحاً ويهيج موجعاً؟ لو أن أمي تركت النذر ولم تلتفت إلى كلام صويحباتها لما حدث الذي حدث، بعض الأحيان أشفق عليها وأعذرها حين أفكر بالمشقة التي تكبدتها خوفاً عليّ تلك الليلة، خاصة ما واجهته عند عتبة المسجد، أتصور كيف ارتعدت فرائصها - وهذا ما ذكرته هي- حين أيقنت أنها ستواجه أي احتمال ممكن وحيدة حيث أن صراخها لن يُسمع ولا

نجدة يمكن أن تصلها من أحد. جلست قريبة من العتبة، بكى طفلها فألقمته ثديها لتسكته وكانت قد حاولت الاختباء بين صفين من نبات ألآس المنتظمة طولياً أمام باب المسجد كاتمة أنفاسها، الهدوء الذي يسود المكان حمل إليها شيئا ً من الطمأنينة مع أنه قد يكون نذيرا ً لسوء آتٍ. كان لديها احساس بأنها ووليدها ليسا الوحيدين في المكان، كان في الأرجاء نَفَس، ربما أوهامها تصور لها ذلك، استعاذت بمعوذتي ربها مرات عدّة، إحساس الشراكة في المكان يتعمق، يطغى، لا يمكن أن يكون زيفا ً، نباح كلاب بعيدة، لم يقلقها هذا كثيرا ً لان العصا التي معها ستتدبر الأمر. أي شيء تعرفه هيّن لكن القلق من شيء لا تعرفه، صمت الولد يعطيها فرصة أكبر في الخلاص لكنه ترك الرضاعة وبكى ثانية ً، ربما من البرد، ضمته إليها أكثر، ورغم صوت بكائه العالي هذه اللحظة فقد وصل إلى " عظم أذنيها" صوت آخر، بكاء طفل ثانٍ، آه لم يكذبها الإحساس، أنها الآن تسمع الصوتين بوضوح لا يمكن أن تخدع نفسها بأي تفسير، هو صوت مختلف .. واهن وخشن، متعب جداً ويأتي من خلفها، إذا استطاعت الوقوف والالتفات ستجده بعد سور نبات الآس تماما ً، لكنها ترتجف وتلتصق بالأرض، رجلاها لن يتمكنا من حملها احتضنت طفلها وأغمضت عينيها الخاليتين من الدمع بعد أن كانت قبل قليل تفتحهما على وسعهما في محاولة لاستكشاف الظلام المحيط بها. أذناها هما اللتان

جاءتا بالخبر وما تزالان، هل هي روح طفل زحفت نحوها ؟ أم هو طفل حقيقي مرمي على مقربة منها؟ أي جوابٍ سيكفي لرعبها، إنها مرعوبة في الأساس، لكن إحساس الرفقة لم يغادرها بعد، ما تزال تشعر رغم كل شيء بأن هناك شيء في الأرجاء، ما هو؟ لابد أنها ستموت خوفاً ، أيقنت أن لا عودة لها إلى بيتها وأنها مهما ندمت على مغامرتها لن تستفيد شيئاً. لن ينفعها شيء هنا، ربما شعرت أنها حشرة صغيرة إزاء كائن هائل اسمه القدر سيحطمها دون أن يشعر.

بدأ صوته يضعف تدريجياً دون أن يظهر أي شيء آخر سوى الكلاب المقتربة، رأتها قريبة جداً ، كانت عيونها مضاءة، يوجد ثلاثة منها في الأقل، لا تستطيع الجزم أن كانت كلاباً أم ذئاباً أم بنات آوى، لكن نواياها واضحة، استطاعت أن ترفع يدها وتهوى بالعصا على الأرض الصلدة، لتبين أنها مستعدة، أملت بهذه الحركة أن تكسب شيئاً أو أن تجرّب ما تستطيع فعله، تراجعت الكلاب خطوة إلى الوراء، حقيقة أن كلباً واحداً هو الذي تراجع أما الآخران فقد زأرا ونبحا بقوة، كانت الكلاب في نهاية الممر المحاط بالآس لم تستطع مع الظلام الدامس أن تميّز أشكالها لكنها رأت كتلة أحدها المعتمة تترك مكانها وتتجه نحو المكان الذي يأتي منه صوت الطفل، لقد اكتشف الطفل الآخر وقرر أن يكون هدفه الأسهل، لم تستطع البقاء جالسة كما كانت حين أدركت ذلك، بل نهضت وقلبها يضرب صدرها

بطريقة كادت تخنقها، نهضت بسرعة والعصا بيدها والتفتت خلفها، كانت لفة بيضاء تحوي طفلاً والكلب يشمّ اللفة ليختار العضة الأولى، ضربته، أخفقت، نبح بوجهها، صرخت بحدّة وضربته عدة ضربات سريعة لا تدري هل أصابته أم لا لكنه فرّ، يعوي، لم تشعر إلا وهي عند الطفل ترفعه عن الأرض وهي تلهث خائرة القوى، ثم جلست على الأرض وهي تحسّ بارتخاء رجليها وارتجاف كامل جسدها، في تلك اللحظة برز لها وجه امرأة أخرى من خلف جدار الآس، رأت العينين فقط، فوجهها ملثم بالكامل، كانت العينان تشكرانها على صنيعها هكذا فسّرت نظرتهما تلك، أي وهج امتلكته تلك العينين لتبدوان واضحتين في الظلام؟! هذا ما احتارت في معرفته بعد ذلك أغمى عليها من فرط الرعب أو أنها توهمت ذلك مفترضة أن هذه المرأة التي توارت سريعاً في الظلام هي أم الطفل الذي بين يديها الآن.

زحفت وهي تحمل اللفيفة نحو ابنها وقد قررت أن تأخذ الاثنين وتمضي بما تبقى لها من قوة إلى بيتها وتترك نذرها معلق الى حين، لكنها حين لم تجد ابنها في مكانه، رجّحت أنها خلطت بالأماكن نتيجة الخوف الذي هي فيه فدارت في الأرجاء، مسحت المكان كله حتى سقطت من التعب واليأس، فجلست واضعة الطفل الذي صمت، ولا تدري هل صمت تعباً أم انه أحس بدفء حضنها فنام، ولم تدرِ

كذلك هل كانت هي نائمة أم غشي عليها حين أيقظها رجل عرفها، وقادها نحو بيتها وفي حضنها الطفل الذي أفترضُ الآن حسب الحكاية الأولى هذه أنه أنا، أمي التي لا أعرف إن كانت هي أمي أم صاحبة العينين الشاكرتين، ومنذ ذلك الصباح أصاب عقلها لوثة فحكت هذه الحكاية مع تغييرات شتى، مرّة تقول أن الكلاب أخذت الطفل الآخر وأنها تمسّكت بطفلها حتى آخر لحظة، ومرّة تقول أن المرأة الأخرى، الخاطئة، أخذت ابنها بعد أن رأت ما سيكون مصيره بينما هي تتفرّج، ومرّة ثالثة تقول أنها مجرد حكاية تُروى لأنها لم تغادر البيت قط ! وفي النهاية لم تعرفني ولم تعرف بيتها أو حتى نفسها، تعبتْ من الحكي، وتعبتُ أنا كذلك هل تعبتَ أنت أيضاً يا شيخ من حكي كل ما رأيت في حياتك؟ هكذا سألت صاحبي وشريكي في الاتكاء على الشجرة، لم يجبني سوى بحسرة وهو يحفر الأرض بنظرات لا يرمش فيها جفن، ثم قال وقد اكتسى وجهه بلون الليمون الناشف: كيف برأيك يستقيم الناس في هذه القرية؟! شايعوا المتجاسر ثم المائع المتهتك والآن هم أصحب الثور الحارن ولست أدري ما هو القادم ... عليك يا ولدي أن تستغل ما بقي من الليل وتتسلل لتصل إلى السكة الأخرى فالقطار هناك وقد يقف ليقلك.

لكني فكرت في شيء آخر .. لا يهمني على أية صيغة يستقيم أهل هذه القرية، المهم عندي الآن .. أن تذوب حكايتي وتنسى، ولا أرى

مكاناً أفضل من هذا تدفن فيه الحكايات، عندما أشرقت الشمس كنت منتشياً أسقي الثور سمناً محلى من جفنة ثقيلة، ثم أعطوني بفرح غامر رشاشاً سريعاً أطلقتُ النار منه بغزارة في اتجاهات الأرض الخمسة.

بغداد في 28 : 3: 2016